N A W Z A T   S H A M D I N

رواية
NOVEL

نوزت شمدين

سقوط سرداب



نوزت شمدين ◆ سقوط سرداب

F A L L   O F   A   C E L L A R

رواية
NOVEL

سقوط سرداب



السجناء وحدهم يعرفون المعنى الحقيقيّ للصبر. يعيشون تجاربهم الجسديّة والنفسيّة بتفاصيل غير منقوصة، فيشعرون بآلام الأمراض وأوجاعها إلى أقصى المديات، ويمنحون ذكرياتهم القديمة، وهي تمرّ في البال، كلّ ما يملكونه من حزنٍ ودموع، ويضحكون ملءَ أفواههم لأتفه لحظة سعادةٍ تصادفهم، ويخترعونها لأنفسهم إذا لزم الأمر لكي لا تجفّ قلوبهم. توصّلت إلى هذه القناعات الإنسانيّة بعد أن صرت واحدًا منهم، بل وأحيانًا كنت أحسدهم لأنّهم معلنون ويواصلون حياتهم في المساحات والمدد المقرّرة لهم في سجونهم، خلافًا لسجوني السريّة المتداخلة الّتي لم أكن فيها سوى شبح لا أكثر.



رواية
NOVEL

نوزت شمدين

سقوط سرداب

سقوط سرداب / رواية عربيّة
نوزت شمدين / مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى، 2015

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ :
المصيطبة، شارع حبيب أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU ، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11 ، الرمز البريديّ 2190-1107 ، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com
التوزيع في الأردنّ :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
e-mail: info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ :
® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف : **بيتر راڤن** / الدنمارك
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو پرس** / بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-525-3

سقوط سراب

لم يكن اختبائي في السِرداب صُدفةً حياتيةً طارئة أو نزوة شابٍ قرر فجأة العيش في قلبِ الظلام. بل كانت خطة طوارئ محكمة وضعتها أمي، أرملةُ الشهيد الخائفة على وحيدها بين خمس بنات. وسعيها من أجل إنشاء مملكتي السردابية بدأ لحظة أن سلمتها صيف سنة 1986شهادة تخرجي من الإعدادية عن الفرع الأدبي بمعدل 95.5%. فمنعت ساكني المنزل جميعاً من الاقتراب من الممر الطويل المؤدي إلى باب السرداب الخشبي الكبير بحجة عدم مضايقة روح المغفور له والدنا الذي اختار سرداب البيت برزخاً يستريح فيه. وأقنعت أخواتي بأن لأرواح الموتى وجوها بشعة لا تتكشف إلا للأقرباء ومن يطلع عليها من بنات العائلة حتى وإن كان ذلك دون قصد منها، سيصيبها النحس والجنون. وبالنتيجة عنوسة أبدية.

لا أدري لم صدقت أنا أيضاً حكايةَ أمي البرزخية. وانغمستُ خلال الأيام الأولى لضجيج البنائين والنجارين والسباكين في جلسات اللطم العائلية. أردد مع جدتي وأخواتي مثل أرامل القبور: "يللي رحت وعفتنا". وعيوننا المليئةُ بالدموع ترنو إلى صورة أبي المعلقة في صالة المنزل بقدسية تليق بمقام عميد ركن في الحرس الجمهوري.

***

استغرقت عملية إعداد السردابِ شهرين و ستة أيام. وقبل أن التحق بعامي الدراسي الأول في كلية القانون بجامعة الموصل كان كل شيء جاهزاً لتجنيبي المصير الذي لاقاه أبي في الحرب العراقية الإيرانية التي كانت ما تزال مشتعلة نارها على طول الحدود الشرقية للبلاد وبلغت لهيب سنتها السادسة. ومع أنني جاوزت وقتها الثامنة عشرَ من عمري وتم اعتباري راشداً بحسب معايير دائرتي الأحوال المدنية ورعاية القاصرين، إلا أن أمي وجدتي لأبي أصرتا على إبقائي طفلاً. ولم يُعِرن أي اهتمامٍ لكوني أصبحت أطول من في المنزل. فقد تعاملن مع ذلك على انه أمرٌ عضويٌ لا يختلف كثيراً عن نمو أسنان دائمة بدلاً عن اللبنية. وفي ظل ذلك القيد النسوي الصارم لم أجد مساحة كافية أمارس

فيها رجولتي المتفستقة واكتفيت بارتجافات ما بعد منتصف الليل، مارستها بخوف وانأ أزخ عرقاً في الحمام.

****

لم يكن لدي أصدقاء في حي الضباط الذي نسكن فيه وسط مدينة الموصل، وكنت بالنسبة لأولاد الجيران الابن المدلل لعائلة أنفها في السماء. وهذا ما جعلني هدفا طفولياً سهلاً أثناء محاولاتي القليلة جداً للإفلات من حدود سلطة أمي. وحتى أولياء الأمور كانوا يغضون الطرف عن الركلات والصفعات التي أتلقاها وأنا اهرب من أولادهم المجانين وهم يجرون خلفي ويصيحون"خيخة،، خيخة".

ولم أحظ في المدرسة بزملاء يستطيعون منع أنفسهم من الضحك ساخرين من تأتأتي وأسلوبي الأنثوي بالغ الرقةِ في التعبير. وحدهن التلميذاتُ في مرحلةِ الابتدائيةِ تعاملن معي على أنني كائنٌ بشريٌ مثلهن وقبِلن بي زميلاً كما أنا. متخطياتٍ كل عيوبي الظاهرية. المعلماتُ انتبهن إلى ذلك وسمحن لي في سنتي الخامسة والسادسة ابتدائي بحمل الشعلة ضمن فريق فتيات طلائع مدرسة الفتوة في مهرجان الربيع السنوي.

طوال مشواري الدراسي في متوسطة الضواحي وإعدادية الشرقية غير المختلطتين. بقيت محتفظاً بمقعدي في مقدمة الصف باعتباري أشطر طلابه، وأكثرهم التصاقاً بالسبورة والمدرسين. كنت أجيب عن الأسئلة خلال الدروس وأطرح الكثير منها وانتظر بإلحاح إجابات عنها وسبابتي دائماً فوق الرؤوس طالباً الإذن بالحديث متجاهلاً نوبات ضحك زملائي الساخرين من تلعثمي وقفزاتي الضفدعية أمامهم. كنت أنقش بخط جميل على سواد السبورة بياض الحلول وأتولى كتابة تاريخ اليوم واسم المادة أو ما يمليه علي المدرسون من عبارات. واشتهرت بأنني الوحيدُ الذي ينفجر باكياً إذا حصلت في الامتحان التحريري على درجةٍ تقلُ عن 90 من 100.

الطريق الوحيد الذي عرفته كان الذي يربط بيتنا بالمدرسة. ولم يُسمح لي القيام بأي من الأعمال المنزلية ولا حتى إبداء الرأي فيها. مهمتي الوحيدة كانت منحصرةً في مذاكرةِ دروسي والاستماع إلى قصص جدتي عن بطولات أبي والمعارك التي خاضها في سبيل الوطن. وكفاح جدي من اجل المحافظة على تأريخ البلاد من التزوير.

كنت مستسلماً بالكامل لحنان أمي وفطنتها. فقد كانت تفكر وتقرر بدلاً عني، تطعمني وتحممني وتختار ثيابي وألعابي. وتفرشني مثل رضيع إلى جوارها كل ليلة. فصار من الطبيعي أن أتحدث وامشي واضحك وآكل مثلها. وربما كان هذا هو السبب

الذي جعل أخواتي يعتقدن بأنني واحد منهن ودفعهن إلى إشراكي في العاب الجولا والخرز وحبك لبك والثعلب فات والسماح لي باستخدام ألوانهن في رسم الزهور وتعلم نقش الدببة والأرانب على أغطية الوسائد. والإفشاء بكل إسرارهن الأنثوية فأحمر من الخجل وأنا إداري الانتصاب الغريزي بالتكور مثل قنفذ.

كانت أمي القائد الميداني في المنزل والعقل المدبر لشؤونه بسبب انشغال أبي المستمر بالحروب. وبعد أن اخذوا من البيت تابوته الفارغ ملفوفاً بالعلم العراقي في جنازة رمزية. أصبحت سلطة أمي مطلقة وانفردت بالقرارات مكتفية بمنح جدتي دور المساعد والمشاور غير الملزم في قضايا محدودة. وحتى قبل ذلك عاملت أخواتي سندس وشمس ونسمة وإسراء وسعاد اللواتي يكبرنني سناً جميعهن، على أنهن دمى تحركهن بخيوط سلطتها كما تشاء. فكبرن نسخاً تطابق أحداهن الأخريات وبقين سنوات مثل تميمات معلقات في المنزل لا تصل إلى أي منهن يد خاطب. وعندما فكت أمي عقدة سندس التي تكبرهن بواسطة حجاب سحري صنعه فتاح فال من الرشيدية، أعيدت إلى المنزل مطلقة مع طفلتين بعد انتهاء مجلس عزاء أبي بأسبوعين فقط.

الأمر بقي على حاله عندما أصبحت طالباً جامعياً، باستثناء تناوب أمي وجدتي على تعليمي كيفية العيش في الظلام. كنت اجبر على تلقي فروضي الإضافية تلك كل يوم جمعة وأنا نصف عار ومعصوب العينين في الملجأ الكونكريتي المشيد

ضمن حديقة بيتنا الخلفية. كان معسكراً تدريبياً أسبوعياً تجري تفاصيله فجراً بعيداً عن أعين أخواتي. ولبث روح العزيمة في نفسي ودفعي إلى بذل المزيد من الجهد في تعلم فن المكوث مثل بومة في العتمة، كانتا تحرصان وبنحو يومي على أن أشاهد برنامج"صور من المعركة"*، وكان يبث على قناة تلفزيون العراق العام، وأستمر بثه في بيتنا بواسطة جهاز الفيديو كاسيت بعد انتهاء الحرب ووصولي للمرحلة الثالثة من الكلية. كانتا تحصلان على النتيجة التي تريدانها بسهولة ويسر، فقد كنت أفزع من موسيقى مقدمة وخاتمة البرنامج. واقضم أظافري مرعوباً من صوت المذيع وهو يعلق صارخاً بأعلى صوته على مشاهد الجثث الممزقة والخوذ والبساطيل المثقوبة بالرصاص وشظايا القنابل.

****

الحرب والإعدام بسبب الهروب منها، جرسا إنذار ظلا يدقان في رأسي لأكثر من أربع سنوات، فكلاهما كانا يؤديان إلى مصير واحد لا غير، هو الموت. شهيد أو خائن كان سيان بالنسبة لنا نحن الثلاثة أنا وأمي وجدتي والطريقة الوحيدة للنجاة كانت باختفائي التام وان أصبح كائناً غير مرئي في العالم السفلي، إلى أن تحدث معجزة ما تعيدني إلى فوق.

وحتى قبل دخولي السرداب، كنت اعتقد بان مفارز حزب البعث والأمن والاستخبارات والانضباط العسكريين التي داهمت بيتنا غير مرة ودون سابق إنذار، وأحياناً في ساعات متأخرة من الليل، إنما هي إجراءات وطنية للاطمئنان على عائلة الشهيد. وليس كما كانت تشيع جارتنا الخبيثة أم يعقوب بأنهم يبحثون عن روح أبي.

أول مداهمة لهم جرت بعد يوم واحد من إعلان أمي فقدان والدي في الحرب منتصف سنة 1985، نافيةً معلومات الجيش بشأن استشهاده لعدم العثور على دليل مادي يثبت ذلك. وتكررت مداهماتهم الخاطفة في العام التالي وبعد أيام فقط من إقرار أمي وجدتي بحادثة الاستشهاد استناداً إلى إفادة جندي مطوع كان تحت أمرة والدي.

كانوا ينتشرون في أرجاء البيت. يقلبون الأغطية والوسائد في غرف النوم، يفتشون الدواليب وتحت الأسرة والمطبخ والحمام، والحديقتين الخلفية والأمامية، يصعدون إلى السطح، يهبطون إلى السرداب والملجأ، ثم يطرحون أسئلة سريعة على أمي وجدتي. يدونون الإجابات في سجل كبير، ويرحلون.

ومع كل مداهمة لرجال الحكومة إلى منزلنا، كنت احشر مع أخواتي في غرفة نومهن. أتلو معهن أدعية الخوف ونحن نشاهد تعذيب الجنود للمنامات واللعب، ونحاول أن لا يضبطوننا ونحن متلبسين بالنظر إلى ملامحهم الغاضبة. وعندما كانوا ينتقلون إلى

الغرف الأخرى، نمط آذاننا لالتقاط أي صوت دون أن نفهم شيئا من الحوارات الجارية في الخارج، باستثناء قرقعة البساطيل والأصوات الخشنة للجنود وهم يثرثرون مع بعضهم. ولمرتين أخرجتني آمي إليهم وفي جيب بجامتي البازة بطاقتا الأحوال المدنية والطالب، وفي المرتين سخر أصحاب القبعات الحمر والشوارب الغليظة من طريقتي في ترديد أسمي الثلاثي والمرحلة الدراسية التي أنا فيها. وأذكر جيداً أن أحدهم قال لي في المرة الأخيرة وهو يعيدني إلى الغرفة: "ثائر أنت بزر نستلة"*.

****

كان بيتنا قبل اختفاء أبي في الحرب، حجاً يطوف إليه الأقرباء والأصدقاء والمعارف ليلاً ونهاراً. وغالباً ما كانوا يجلبون معهم ملفات وطلبات عسكرية لنقل جنود من جبهات القتال الأمامية إلى الخطوط الخلفية، أو يحاولون معرفة مصير من انقطعت أخبارهم أثناء المعارك. وكانت أمي تجمع الطلبات بانتظار عودة أبي في إجازة، وترفض بشدة الهدايا والعطايا التي يأتي بها الزائرون للوصول إلى رضاه. وذات يوم كنت عائداً فيه للتو من امتحان الرياضيات في الصف الرابع إعدادي، شاهدت أبي في المطبخ وهو يمزق مثل ثور هائج أوراقاً وحوله تناثرت

على الأرض وفوق الكراسي والدواليب آلاف من القصاصات. فيما كانت أمي تجلس إلى الطاولة تقور أحشاء باذنجانة مغالبةً دموعها. قال لها وهو يدقق في الاسم المكتوب على ملف قبل أن يمزقه:

– أمرتك يا أحلام أن لا تأخذي من هؤلاء الكلاب أي ورقة، وأن تطرديهم من الباب.

شفطت أمي رشح انفها، ولاح رأس جدتي وهي تراقب من الصالة.

–أنا رجل عسكري مهني وعصامي بنيت نفسي من الصفر. سمعتي فوق كل شيء، كما أننا في حالة حرب.

ثم داس برجله على كومة قصاصات وقال:

– هؤلاء الجبناء ليسوا أفضل من الشباب المضحين بأرواحهم في جبهات القتال.

بعد تأكيد خبر استشهاد أبي، توقف عن زيارتنا الجميع، باستثناء خالي زياد النسخة الكاربونية من أمي إذا قصرنا الشعر وألغينا الشوارب وأندرست الأثداء. حافظ على ارتباطه ألتوأمي بها وظل قريباً من أفراحها وأحزانها على الرغم من انه كان عاثر الحظ وهدفاً مستمراً للمصائب والكوارث الحياتية. فقد أصيب مطلع الحرب بشظيتين قطعت واحدة منهما مشط رجله الأيمن وأطفأت الأخرى عينه اليسرى. كما أنه حُرم من الإنجاب تاركاً الحالة على الله دون الاستعانة بطبيب.

أما زيارات جارتنا أم يعقوب المفاجئة فلم تكن تختلف عن مداهمات رجال الحكومة، إذ كانت مليئةً بالأسئلة والرصد البصري لكل صغيرة وكبيرة داخل المنزل لتنقل تقارير بشأنها إلى زوجها وبالتالي تكون الفرقة الحزبية في المنطقة مطمئنة أن لاشيء يحدث من خلف ظهرها. حتى الفلاح توقف عن فك الاشتباك بين الأشجار ووقف تطلعات نمو الحشائش في حديقتنا كما كان يفعل رأس كل شهر. وأستثنى إمام الجامع بيتنا من خططه الموسمية في جمع الصدقات والزكاة. جدتي عدت الأمر نعمة هدوء وسكينةً من الله وتخلصاً من خسائر مطبخية فادحة. لكن أمي فكرت أبعد من ذلك وخافت على أخواتي من العنوسة بسبب العزلة الاجتماعية.

---

*صور من المعركة: برنامج عرض أبان حرب الثمانينيات. كان يعرض مشاهد لجثث المقاتلين الإيرانيين وأسلحتهم المدمرة.

* الرشيدية: منطقة سكنية شمال الموصل

* بزر نستلة: عبارة شعبية تطلق على الأبناء المدللين.

الهبوط إلى السرداب

الساعة الواحدة وثمانية عشر دقيقة من ظهر يوم الجمعة 11 كانون الثاني سنة 1991. في هذا الوقت تحديداً كنت اهبط مع أمي دركات السرداب التسع وأنا متيبس من الخوف وحواسي تنطفئ واحدة بعد الأخرى. كانت تقرأ بصوتها الناقوسي آية الكرسي وتجرني مثل محكوم عليه بالإعدام إلى قدره المحتوم. ما كان لشيء أن يسعفني في تلك اللحظات ولا حتى آخر ضماتها لي في زمن حريتي الموشك على الأفول. قالت لي وهي تجهش:

– ثائر، لا تكرهني انأ أنفذ وصية والدك.

لم أرد بشيء كنت انظر في الفراغ وهي تتشممني وتمسح على وجهي بكفيها، ثم أخذت تتمتم بكلمات وهي مغمضة العينين وراحت تنفخ في شعري وصدري قبل إن تجذبني من ذراعي للقيام بجولة في بيتي الجديد. كنت مرعوباً من فكرة البقاء بمفردي في السرداب لأجل غير معلوم. تداخل ذلك مع خوفي من رؤية أبي وهو روح مشوهة، لكنني لم أتفوه بكلمة، فهمت هي كل شيء عندما توقفت معترضاً:

– لا تخف سأكون قريبةً منك، وأظل دائماً خلفه.

أشارت إلى باب السرداب دون أن تلتفت إليه. وتابعت:

– لن أتمكن من النزول إليك خلال الشهر الأول إلى أن تهدأ الأمور. وأعدك بان افعل هذا بعد ذلك عند ظهيرة كل يوم جمعة كما اتفقنا. ربما ينتهي الأمر بسرعة، ويعلن صدام عفواً عاماً.

قلت متأتئاً كمن يتقيأ الحروف:

– أنا خائف.

– أخبرتك ألف مرةً بأنهم سيأخذونك مني إن بقيت معنا في الأعلى، فتستشهد أو تذهب أسيراً.

سكتت للحظات، أخذت بعدها نفساً عميقاً وهي تنظر صوب الدرجات. وقالت:

– الحرب واقعة لا محالة. يجب أن تبقى بعيداً عن أعين جماعة الاستخبارات العسكرية والأمن والرفاق الحزبيين. سيفتشون عنك في كل مكان وإذا اكتشفوا مخبأك سيقتلونك بدم بارد، يجب أن لا تنسى هذا أبداً.

احتضنتني مرة أخرى، ثم همست بأذني:

– تذكر دائما بأنهم يعدمون الهاربين من الخدمة العسكرية أمام أبواب منازلهم، ويأخذون ثمن الرصاص من ذويهم.

****

أشاعت أمي في الحي أنني تركت البيت مطروداً لأنها لم تحتمل فكرة وجود هارب من العسكرية معها تحت سقف واحد. واعتبرتني إضافة إلى عقوقي، ناكراً لجميل الوطن. ولا استحق العيش فيه. وأعلنت أمام دكان خليل البقال نيابة عن عائلة الشهيد العميد سالم أبو درع، براءتها مني ومن فعلتي الجبانة التي لوثت سيرة أبي المليئة بالبطولات وأنواط وأوسمة الشجاعة. وأخذت معها نسوة من الحي بينهن أم يعقوب زوجة المسؤول الحزبي للمنطقة وذهبن إلى مقر الفرقة الحزبية، وهناك قرأت مضمون رسالتي المفترضة وكان نصها:

"أمي، جدتي، أخواتي الحبيبات. في الوقت الذي ستقرأن فيه رسالتي أكون قد عبرت من زاخو الى تركيا، سأقصد البحر ومن هناك إلى اليونان، اعتذر لأنني أخذت مالاً من دون إذن ولم ابقِ لكنّ شيئاً وأعد بتعويض خسارتكنّ فور استقراري في أي بلد. اعرف بأنني خذلتكنّ ولن تقبلن بي مجددا بعد الذي فعلت. لكن مع ذلك سأظل على أمل أن تسامحنني ذات يوم. قبلاتي للجميع، وداعاً.

ابنكم ثائر سالم جميل"،

وبطريقة مسرحية، مزقت أمي الرسالة وهتفت صارخةً وسط جمهرة من الرفاق المندهشين بأنها لا تريد من المتخاذل شيئاً وهي نادمة على كل قطرة حليب ولحظة أمومة أهدرتها على خنزير مثلي. وأنها تتمنى أن أغرق في البحر لأنني لا أتقن السباحة.

وحتى مع براعة الدور الوطني الذي أدته أمي دون أية هفوة، إلا أن عناصر من الاستخبارات العسكرية والرفاق معهم مختار الحي داهموا بيتنا مساء ذلك اليوم، وفتشوا كل شبر فيه ماعدا السرداب. وذلك لان أبو يعقوب الذي كان متوترا ويتلفت باستمرار وصل إلى مدخل ممر السرداب ومعه المختار واثنين من أصحاب القبعات الحمر وخلفهم أمي وجدتي المفزوعتين. وهناك توقف الجميع في مواجهة صورة كبيرة ينتهي بها الممر للقائد العام للقوات المسلحة صدام حسين وهو بقيافة"مهيب ركن"، التفت أبو يعقوب سائلاً جدتي:

– أم سالم، وين راح سردابكم ؟.

_النزيز والرطوبة أكلتنا، والصراصر والفئران دمرتنا. فغلقناه.

ولأن لا أحد يجرؤ على النظر خلف السيد الرئيس، لم يغامر حتى أمين سر قيادة فرقة النسور لحزب البعث العربي الاشتراكي أبو يعقوب بإزاحة الصورة التي كانت ترتفع ثلاثة أمتار وجاوز عرضها المترين. واكتفى بإبلاغ النساء أن ثائر سيتعرض للإعدام بتهمة الهروب من الجيش في حال القي القبض عليه. وان الرفاق الكبار أطلقوا على أسرتنا لقب عائلة المتخاذلين. وأنها لم تعد تملك أية مزايا آو حقوق ثم همس بأذن جدتي بعد خروج الجميع:

– لولا كفالتي لكم أمام الأخ الرفيق عضو قيادة فرع نينوى، لكان الله وحده يعرف ما هي عواقب هروب ثائر.

ثم قال وهو يبتعد برائحته النتنة:

– ضربتان بالرأس توجعه.

* * * *

لم استكشف جغرافيا المكان كما يجب، أو اهتم كثيرا بما تحويه الحجرات الأربع المتداخلة فيه والتي احتلت تقريباً ثلثي مساحة السرداب الذي يشكل نصف المساحة السفلية لبناء المنزل، فلم ادخلها قط خلال الأيام السبع الأولى من هبوطي. حركتي كانت مقتصرة على المساحة المتبقية خارج الحجرات. تحديداً من درجات باب السرداب حيث يتشكل ما يشبه الممر بعرض مترين وثمانين سنتيمتراً، ينتهي بالجدار من جهة الحديقة حيث نافذة السرداب الأولى، وتنعطف الفسحة بزاوية حادة يميناً مشكلةً ممراً بذات العرض يفصل بين جدار الحديقة بنافذته الثانية، والجدار الخشبي للحجرات.

في آخر زاويةٍ من السرداب بقيت خلال الساعات الأولى التي أعقبت مغادرة أمي وإغلاقها الباب بالمفتاح الذي يقترب طوله من سكين مطبخ. جلست على وسادة قديمة محشوة بصوف تحجر بفعل الزمن ملصقاً نصفي الأيسر بلوح الخشب، والنصف الآخر بالجدار الأسمنتي. كنت منتفخاً بالثياب، أرتدي ملابس

داخلية قطنية طويلة وبنطالين رياضيين قطنيين، وثلاثة كنزات صوفية واحدة فوق الأخرى مع سترة عسكرية بفرو داخلي. بينما قدماي كانتا بداخل جوربين صوفيين سميكين نسجتهما جدتي خصيصاً لغيبتي منعاً لبرد السرداب الشتوي الذي تهبط فيه درجات الحرارة في بعض الأيام إلى الصفر مئوي، ولأستخدمهما أيضاً كنعلين لا يثيران جلبة أثناء التحرك.

حاولت خداع ذهني بالتمرن على كتم النفس وحساب المدة التي تصمد فيها رئتي بلا هواء مستعيناً بساعة يدي الالكترونية السوداء نوع كاسيو. شعرت وأنا مغمض العينين بان جسدي معطل تماما باستثناء قلبي الذي بدأ بالاحتجاج في جوفي مع وصولي إلى أربعين ثانية بلا تنفس. وعندما بلغت الثانية الخمسين أحسست بقلوبٍ كثيرةٍ توزعت في أنحاء جسمي، فنبضت شفتاي، ورقبتي، وراحتاي، وقدماي، حتى أصبح جسدي برمته قلباً مطبلاً مع الثانية الستين. وعلى الرغم من محاولات عديدة قمت بها إلا أنني لم استطع كسر رقمي القياسي البالغ 66 ثانية الذي حققته داخل الملجأ في آخر جمعة تدريب. ليس لأنني لم أكن رياضياً أو في الأقل صاحب رئتين شابتين تقويان على الصمود لدقيقة دون أوكسجين، بل لأنني ومع استماتتي في إشغال ذهني بشيء آخر غير ما أنا فيه أو ما أنا مقبل عليه، لم انجح في إيقاف استعراض عقلي لقائمة طويلة بالأشياء التي تفزعني. كنت اعرف بعضها والبعض الآخر أتخيل صورها، فتمر جميعها مثل شريط فيديو

أمام عيني دون أن أتمكن من الوصول إلى زر يطفئه. رأس أبي يشتعل وهو يحمل بيده اليسرى ذراعه اليمنى المقطوعة ويخوض في بركة من الدم محاولاً الوصول إلي. صدام يقهقه وهو يشير نحوي بسيكارته الجروت السمينة معلنا عن اكتشاف مكاني. أمي وجدتي وأخواتي يولولن على قبري. كلاب سود تجرني من رجلي. أفاع بالمئات تزحف فوق بعضها وألسنتها المزدوجة تتمطى لتلمس جسدي العاري. أشباح برؤوس خراف وعيون قطط تدور في حلقة دبكة صاخبة تتسع وتضيق ثم تنقسم عنها حلقات وحلقات. بلعت ريقي وأنا أتذكر كلمات جدتي التشجيعية وهي تقول :

- العسكرية والظلام مصنعا رجال.

****

لم أغير وضعية جلوسي تلك إلا بعد تنمل مؤخرتي ورجليّ بالكامل. استلقيت على بلاط الأرضية الكونكريتي الصقيل وانأ أتنفس بسرعة كمن أنهى للتو سباق جري طويل المسافة. وضعت رأسي على الوسادة التي كان صوفها صلباً مثل قطعة كونكريت مغلفاً بقماش كتان تحول من الأبيض إلى الأصفر بسبب الرطوبة التي عصرت من الصوف. ولتجنب أي غفوة نهارية، رجعت بعد

دقيقتين أو ثلاث دقائق إلى سيرتي الأولى وعدت إلى اختبار قدرتي على مقاومة الاختناق.

هبط الظلام دفعة واحدة، أو هكذا بدت لي العتمة وهي تمحو أي أثر للحياة من حولي. أصابع كفي الأيسر التي فرشتها أمام وجهي لم تستطع عيناي المفتوحتان على وسعهما تمييزها. لمست انفي. طرقت جبيني بإطراف الأصابع. فتحت بالسبابة والإبهام جفني عيني الأيمن فالأيسر، وبالعكس، لكن بصري كان معطلاً وعاجزاً تماماً. ظلام السرداب مختلف عن ظلام الملجأ، فهو ثقيل ومتماسك مثل طلاء أسود مركز يجعل المرء يشعر بالضآلة والضياع في آن واحد. وفي حالتي تلك فان مقاومة الظلام بدون مصابيح أو فوانيس أو شموع أو حتى عود ثقاب، كان مجرد مضيعة للوقت وهدراً لصبر احتجت إلى الكثير منه.

بعد تأكدي من اختفاء الأصوات في الخارج تماما، سحبت جسمي المخدر من تعب الجلوس وفرشته على الأرضية مستلقياً على بطني فاتحاً ذراعي ومباعدا ما بين رجلي ونصف وجهي الأيمن ملتصق ببرودة البلاط ذو الرائحة الرطبة. ثم أخذني النوم. كان البث المتلفز لعقلي مازال مستمراً في عرض برامجه لكن بمؤثرات اقل رعباً مما كانت عليه في اليقظة. وجدتني أمام البوم كبير للصور. أخرجت منه مئات من الصور الحلمية المتحركة لوجوه زملاء الدراسة في مختلف المراحل، كانوا مبتسمين ولطفاء

بخلاف الماضي وملامحهم محبة ومتقبلة لوجودي. تحركت الصور. دخلتُ في تفاصيلها. أردت قول شيءٍ لياسمين وهي تمر أمامي مع صديقاتها. ركضت مع مجموعة من الفتيات بينهن أخواتي سندس وشمس ونسمة وإسراء وسعاد، نحاول ونحن بثياب الطلائع اللحاق بموكب مجسمٍ لسور نينوى في شارع الجمهورية. وضعت لياسمين رسالة ورقية على شكل قلب في كتاب القانون المدني. لوحت لي في حفل تخرجنا وسط المركز الطلابي. أبي ينزف من ثقب كتفه الأيمن لكنه مبتسم. تنطلق بنا الحافلات من تجنيد الموصل الأول صوب معسكر تدريب المشاة. الأفاعي تتسلقني. وأخواتي يرددن راقصات: "يلا افرشولو بصدر إيوانا"، فيقول صدام بغضب وأنا مقيد اليدين والقدمين أمامه في ساحة العرضات: "مات العدو واصفرت ألوانا".

****

أيقظني صوت المؤذن"الصلاة خير من النوم"، كان يمط الكلمات عبر مكبر صوت الجامع القريب. وبدا كأنه يصرخ من داخل السرداب ولصدى صوته ما يشبه الطنين. اتخذت موضعي في الزاوية مجدداً. أحسست برأسي وكأنه ملفوف بضمادة سميكة تضغط عليه بقوة وتعصره حد الوجع. كان علي الإقرار بالواقع فلم

تكن محاولاتي العصفورية مجدية في التهرب من فكرة التواجد داخل قفص. وجدت نفسي وأنا انظر في الفراغ، خائفاً، ووحيداً تماماً في سجن إنفرادي مظلم. ولم أكن اعرف ولا أي مخلوق آخر، كم المدة التي سأقضيها بداخله محبوساً أو مسجوناً. هاتان الكلمتان تجلتا فجأةً في تلك اللحظات، خرجتا من الظلام وراحتا تلطمان وجهي كأنهما تحاولان إيقاظي من نوم عميق لكي أتبين الفرق بينهما. في سنوات الدراسة القانونية لم تكونا سوى مفردتين حبريتين تلطخان أوراق الكتب المنهجية، صارتا في السرداب عنوانين لمصير كنت بدأت خطوات سيري فيه للتو. وتساءلت دون انتظار إجابة إن كان حبسي بسيطاً كما حدده قانون العقوبات العراقي رقم 111لسنة 1969 من يومٍ حتى ثلاثة أشهر، أم شديداً يمتد حتى خمس سنوات، أم هو سجن سيجرني إلى ابعد من تلك المدد. وعلى أية حال كنت على ثقة تامة من أنني اختلف عن النزلاء في السجون العادية. فالسنة تحسب هنالك رأفةً بهم تسعة أشهر فقط. أما سجني يحتوي زمن وجودي بكل لحظاته وتفاصيله، سنة من 365 يوماً بساعاتها الأربع والعشرين الكاملة ولم أكن أدري كم سنة كبيسة ستمر علي وانأ عالق في باطن الأرض مثل دودة.

حاولت إيجاد مخرج قانوني أضعه نقطة أمل بيضاء بمواجه كل ذلك السواد. فكرت فيما إذا كانت تهمة الهروب من الجيش ستسقط عني بالتقادم. وكم سنة اختفاء سأحتاج لتبييض صفحتي

عند الدولة. وهل التهم هي من تسقط أم الأحكام القضائية. لكنني لم أجد إجابة شافية فكل ما درسته في كلية القانون كان قد تبخر وقتها ولم يبق من سنواتها الأربع سوى وجه زميلتي الجميلة ياسمين التي اختزنت آلافاً من صورها في ذاكرتي، تظهر فيها جميعاً وهي تنظر إلى شيء آخر غير عدسة روحي.

****

في أسبوعي السردابي الأول، اقتصرت حركتي على الممر الذي اتخذ شكل(L) بالانكليزية خارج الحجرات. وحتى تلك الحركة كانت محدودة جداً، وخلال ساعات النهار فقط. برمجت معظمها لمقتضيات تناولي الطعام بالتقاط قطع كليجة التمر والسمسم وجوز نركيلة التي ملأت بها أمي قدراً كبيراً من الألمنيوم وضعته على هيكل مبردة هواء قديمة قريباً من الحائط المتشكل أسفل الدرجات. أو أقوم بانتزاع حلقات تين مجففة من عقد كبير علق بطويتين على مسمار معقوف في الجدار بين بابي السرداب والحمام، تماماً فوق حب فخاري مملوء بالمياه ومغطى بصينية ستانستيل على محمل حديد صدِئ. أو أرفع قرصاً كبيراً مقعراً من خبز رقاق*. ارتفع العشرات منه مثل قبة من داخل طشت

بلاستيكي أحمر توج برميلاً منزوع الغطاء ملئ إلى النصف بأسمنت متحجر. وكان هذا هو الطعام الوحيد المتوافر لي طيلة شهر كامل وهي المدة التي غابت فيها أمي وكانت بمجملها مواداً بقيمة غذائية عالية غير قابلة للتلف السريع. وبذلك فهي لم تكن جزءاً من خطة تقشف عائلي بسبب الحصار الاقتصادي الذي فرضته الأمم المتحدة على العراق بعد أربعة أيام من احتلاله الكويت في الثاني من آب سنة 1990.

الجزء الآخر من برمجة حركتي تعلقت بإفراغ ما في جوفي مستعيناً بالمرحاض والحمام المشتركين بمساحة لا تتجاوز عرضاً بطول أكثر من مترين محفورة في الجدار قبل زاوية الممر الوسطية أسفل حمام المنزل مباشرةً. ومع اشتداد الظلام في الليل كنت أظل مستلقياً كالمشلول خوفاً من الارتطام بشيء وإحداث ضجة تفضح وجودي. وكان علي وأنا انتظر الصباح تحمل تقلصات مثانتي وأهدئ أمعائي الغليظة بإطلاق مسيطر عليه للريح. ومع أولى خيوط الضوء التي يفرج عنها الصباح، كنت أسير على رؤوس أصابعي كمن يمشي في رقصة باليه وأظل مقرفصاً فوق فتحة المرحاض مثل منحوتة رخامية. أتذكر أخواتي وحريتي المفقودة وحبيبتي ياسمين والعريف امانج ، وابكي بصمت.

***

احتاجت عيناي إلى أيام عدة قبل أن تتأقلم مع إحساسي بالوحشة الذي يخلفه الانسحاب الموجع لخيوط الضوء عبر نافذتي السرداب المستطيلتين والمتباعدتين قريباً من السقف في أعلى الجدار وتمتدان فيه بعمق يصل إلى متر نحو الحديقة الخلفية بزجاج سميك مزخرف وشبكة حديدية واقية من الحشرات. لم تزود أمي السرداب بالكهرباء استنادا إلى مشورة من جدتي لمنع وقوع حريق ما جراء تماس كهربائي يلتهمني مع الغرف الخشبية وما فيها. أو تداركا للحظات جنون أو غباء محتملة توقعتا بأنها ستنتابني فأشعل مصباحاً يكشفني. كان علي أن أبقي حواسي متيقظة وغريزة الخوف بداخلي على استعداد دائم لما هو سيء. فأي صوت مهما صغر كان يشكل بالنسبة لي تهديداً فأقرفص مذعوراً وقلبي يدق بعنف. الأصوات الخارجية ولاسيما في المساء كانت كفيلًة بإبقائي في حالة تأهب قصوى لمدة طويلة مع أذنين تعملان مثل رادارين. والأصوات النهارية لباعة النفط الأبيض والغاز والخضر والعتيق وآذان الجامع وخطبه كانت تشدني بخيوط غير مرئية ولا تفلتني إلا مذعوراً ومشتتا وموسيقا صور من المعركة تعزف في رأسي مثل شريط تسجيل لا يتوقف.

المساء كان يحبطني ويدخلني في عزلة تتحالف مع عزلة السرداب في تعذيبي، لم يكن الظلام تحديدا هو ما يخيفني وإنما الأشياء التي كنت أتخيلها سابحةً فيه أو تمكث لتراقبني دون

حراك طوال ساعات الليل. أما الفئران والسحالي والحشرات، فاحتجت إلى الكثير من الجهد لتقبل وجودها ومشاركة السكن معها. وتحولت مع مرور الأيام إلى كائنات لطيفة تخفف بحركاتها السريعة المضحكة ضباب الحزن المحيط بي. حتى انقشع خوفي القديم منها وصرت انتظر بفارغ الصبر غارة فأريّة على فتات الخبز الذي اتركه عمداً في إحدى الزوايا، وما أن استمع إلى التكسر الطائش للفتات المتيبس حتى اهرع مثل هر إلى المكان لأستمتع بالذوبان الصاروخي للفأر في الفراغ. وأعود مبتسماً إلى مكاني وأنا على قناعة تامة من انه يراقبني بحنان حيواني باهظ، لأنه يدرك بأنني العب.

خوفي لم يكن من مجرد الموت. فجدتي رسخت قناعتي بمقدمه الحتمي من خلال قصصها المسائية التي كانت تدور في الغالب عن الموت والتحاقنا جميعاً بجدي وأبي. وإنما كنت اخشي من الوسيلة التي سيتحقق بها موتي. وكثيراً ما تخيلت أشخاصا بثياب عسكرية وملامح غاضبة متراصفين وفوهات بنادقهم الكلاشنكوف موجهة نحوي. أغلق عيني واكتم أنفاسي. أسمع بعدها إيعازا بإطلاق النار، وأتقمص ألم اختراق الرصاصات لرأسي وحدوث فجوات حارقة فيه. الشخوص في سيناريو إعدامي لا يتغيرون، لكن التفاصيل هي التي كانت تتغير في كل مرة. وكنت أتحكم في توحيد زمن الأطلاقات، أو اجعلها متلاحقة. أضيف رائحة البارود إلى المشهد، أو رائحة الدم المتدفق من

رأسي والمنساب بلزوجة ساخنة على وجهي. أضع عصابة على عيني، فأتخيل بأذني فقط، أو ارفعها فأرى المشهد كاملاً. ارفع أو أخفض من صوت الآمر بالإطلاق وأصوات الأطلاقات ذاتها، وكانت حالتي النفسية في لحظة التخيل هي التي تحدد الشيئين الأخيرين. ومع آلاف المرات التي أعدمت فيها بتلك الطريقة المتخيلة طوال سنواتي السردابية الأولى لم استطع الوصول إلى درجة ألم يمكنني تحملها. وفي كل مرة كنت اشعر بوجع يختلف عن سابقتها، فيصيبني الإحباط والاستسلام التام لقدر الإعدام رميا بالرصاص أمام بيتنا لهروبي من خدمة العلم.

---

* خبز رقاق: خبز هش ورقيق يمكن خزنه دون تبريد فترات طويلة.

في الساعة الثالثة وأثنين وعشرين دقيقة من فجر يوم السابع عشر من كانون الثاني 1991، أيقظني دوي انفجار قوي هزني مع السرداب بعنف. بعدها بثوانٍ ارتفعت أصوات صفارات الإنذار ووقعت أنفجارات متلاحقة، قريبة وبعيدة استغرقت نحو ربع ساعة تمطت أمام فزعي ساعات وساعات. فقدت خلالها بوصلتي اتجاهاتها. ركضت كالمخبول مرتطماً بالجدارين الأسمنتي والخشبي بين بابي السرداب والحمام موقعا الأشياء في طريقي وأنا أردد مخرجاً الصوت من بطني"ماما .. ماما "، متوقعاً ظهورها في أية لحظة لإنقاذي. صمتت الأصوات لدقائق وكأن قوة ما أطفأتها فجأة. كنت ارتجف من الخوف وأنا ألف ركبتي بذراعي واهتز مهدهداً نفسي داخل الحمام. في تلك الأثناء سمعت أحداً ما صوته يشبه صوتي، يقول لي بأن ما حدث هجوم أمريكي بقنبلة ذرية وأن سكان الموصل فوق السرداب بينهم أهلي تبخروا جميعاً كما حدث لسكان ناكازاكي وهيروشيما اليابانيتين في الحرب العالمية الثانية. بكيت بحرقة وألم وبصوت عال جاوز التحوطات والتدابير الاحترازية التي تدربت طويلاً من اجل القيام بها في حالات مشابهة، كوضع كف على فمي لكتم العويل وإخراجه على شكل هواء نافر من انفي. لم يكن ذلك مهماً أو مجدياً ساعتها، فالمدينة ماتت بأكملها ولم يعد بوسع أحد سماعي وأنني الناجي الوحيد من الحرب. الحرب التي هربت منها جاءت إلي بنفسها.

بدد صوت انفجار بعيد هواجسي تلك، ثم انطلقت أصوات رشقات متتالية وطويلة للمضادات الجوية. نهضت بتثاقل واتجهت صوب باب السرداب آملاً بظهور أمي، غير أن أنفجارين عنيفين متعاقبين أدخلاني دون إرادة ووعي مني، إلى سلسلة الحجرات المتداخلة. لم اعرف لحظتها في أي منها استقرت كتلة جسدي، كنت أسد أذني بسبابتي وأغلق جفني بملامح منقبضة مترقباً أصوات أنفجارات جديدة، كمن ينتظر زرقة إبرة ستخترق جلد مؤخرته في أية لحظة. عادت أصوات صفارات الإنذار مولولة في الخارج. نغمتها كانت حزينة ومتواصلة وليست متقطعة كالمرة الأولى. المكان كان أدفـء من الخارج. الأرضية مفروشة بالسجاد. تحسست مساحةً فارغة منه أمامي بيديّ، ومددت رجليّ مسنداً ظهري بالجدار الخشبي فزقزق. رائحة الخشب كانت مختلطة مع رائحة صابون حلب، وروائح أخرى لأشياء لم استطع اختراق حاجز العتمة نحوها. بقيت جالساً بلا حراك محاولاً الابتعاد بسمعي إلى ابعد مدى لالتقاط أي صوت يدل على وجود مدنيين أحياء، لكنني لم أسمع غير صوت خافت لتكتكة عقارب ساعة موجودة في مكان ما بالقرب مني. لم أكن متأكدا من أنني سمعت صوت أذان الفجر، ربما غطت عليه التفجيرات والإنذارات أو أن منظومة الخوف بداخلي ما التقطت سوى أصواتاً معينة، لم يكن في ذلك اليوم نداء الرب من بينها.

تسرب ضوء صباحي باهت عبر فتحات صغيرة لا يتجاوز قطر الواحدة منها المئة فلس، متراصفة في سبع صفوف على امتداد الجزء العلوي من جدار الحجرة الخشبي المقابل في الخارج لنافذة السرداب الثانية. انعكست دوائر الضوء على الحائط الأسمنتي المقابل لها لتتكشف معالم الحجرة المستطيلة بطول خمسة أمتار وعرض مترين ونصف وكانت مخصصة لنومي، أو بمعنى أدق سجني الانفرادي داخل سجون أخرى متعددة ومتداخلة مع بعضها مفروشة بسّجادة مزخرفة بألوان غامقة بذات طول الحجرة تقريباً إلا أنها أعرض بنحو شبر ورفعت الزيادة لتصبح إزارا ملاصقاً للجدار الأسمنتي. كانت الحجرة وتسلسلها الرابع عبارة عن الجزء الأخير من دهليز هندسته أمي للتضليل على مكاني قدر الإمكان. لا يمكن الدخول إليها إلا بعد اجتياز ثلاث حجرات أخرى بذات الحجم لكن بأبواب غير متقابلة. مصطفة مع بعضها مشكلة ما يشبه صندوقاً خشبياً كبيراً بمنفذ واحد يفتح بابه إلى الخارج مقابل باب الحمام. وقياساً بالحجرات الثلاث الأخرى، حجرة نومي كانت فقيرة المحتويات، لم يكن فيها سوى مدفأة نفطية نوع علاء الدين فستقية اللون، وفراشاً أسفنجياً ضغط عالي بغطاء رمادي، وبطانيتان بنيتان تحملان صورة نمر قافز، وسلة بلاستيكية كبيرة متعددة الألوان فيها ثيابي. وخمس قطع مربعة من صابون حلب ومنشفة مخططة بالأزرق والأبيض وأدوات حلاقة الذقن. وعلى جدار الحجرة الخشبي علق مصحف موضوع داخل

كيس قماش أخضر اللون، والى جواره علقت حقيبة جلدية سوداء فيها راديو نوع ناشيونال باناسونيك، وساعة منضدية سوداء بلا منبه لا يتجاوز حجمها علبة سكائر مرمية على الأرض بلا اهتمام.

مرت ظهيرة ذلك اليوم بصمت وسكون مطبقين، حتى زقزقة العصافير التي كانت تضج بها الحديقة الخلفية في مثل ذلك الوقت اختفت. بقيت في مكاني دون تعديل في وضعية جلوسي. انتظرت صوتاً يأتي من باب السرداب. جلبة معدنية للمفتاح وهو يتقلب ثلاث مراتٍ داخل القفل تماماً كما أغلق آخر مرة لينفرج الباب أخيرا عن أمي. دقت صافرة الإنذار بصوت حاد متقطع ينبئ عن فاجعة مقبلة. عاد الصوت الذي يشبه صوتي ليخبرني بان الإشعاع الذري تمكن من إنهاء جميع مظاهر الحياة في الموصل، وان علي إيجاد طريقة للخروج والهرب بعيداً دون أن التفت ورائي. رجفة الخوف امتزجت ببردٍ قرص يدي ووجهي. أمسكت مقبض المدفأة الحلزوني ورفعتها لأتحسس وزنها، فوجدتها فارغة من الوقود. فتذكرت أن ذلك بسبب تدبير احترازي ونصيحة أخرى من جدتي عملت بها أمي لمنعي من إحراق نفسي، أو في الأقل تجنيبي مصير الموت مختنقاً بثاني اوكسيد الكاربون. واحتجت إلى مرور سنة كاملة لتزوداني بعشرة لترات من النفط الأبيض أسبوعيا بعد أن تأكدتا من جاهزيتي في تدبير أموري

الحياتية اليومية، من خلال كشوفات دقيقة أجرتها أمي مراراً على السرداب بأكمله، مع التركيز على حجرة نومي وفتحة المرحاض.

علت أصوات صفارات الإنذار معلنةً انتهاء الغارة وزوال الخطر. خمنت بان سكان حي الضباط بينهم أهلي، كانوا يخرجون في تلك اللحظات من ملاجئ كونكريتية مسلحة أنشأوها في حدائق منازلهم الواسعة لتقيهم من الصواريخ وقذائف الطائرات، وهي ميزة امتلكتها أسر كبار العسكريين بينما المواطنون العاديون في المناطق والإحياء الأخرى كانوا وبلا شك مستسلمين للقدر ولا يعرفون في أية لحظة ستسقط سقوف منازلهم فوق رؤوسهم. سمعت صوت قرض للخشب في مكان ما. قفز فأر إلى ذهني ثم انتفخ ليصبح جرذاً. شعرت بقشعريرة في جسمي كله، نهضت للخروج. كنت سأمد خطوةً إلى الأمام لحظة أن أقعدني صوت تفجير هائل اهتزت معه الجدران الخشبية، وتناثر غبارها، أعقبتها تفجيرات بعيدة بالكاد سمعتها. مضت عشر دقائق تقريباً بعد ذلك عندما دقت صفارة الإنذار معلنة عن غارة كانت هي آخر من علمت بها.

الأخبار في إذاعة صوت أمريكا ذكرت بان عملية عسكرية جوية ضخمة باسم درع الصحراء *. بدأت في الساعة الثانية فجراً لتحرير الكويت من الجيش العراقي، وان البيت الأبيض دعا صدام حسين إلى الاستسلام والانصياع لقرارات مجلس الأمن. صدام أصدر بياناً بثته إذاعة جمهورية العراق قال فيه أن العدوان

الثلاثيني قد بدأ وان على الشعب العراقي الصمود بوجه الغزاة وأنه متمسك بتحرير الكويت وفلسطين ولبنان والجولان. إذاعة مونت كارلو تحدثت عن ألف طلعة جوية قامت بها قوات التحالف، وقذفت أكثر من 100 صاروخٍ من طراز كروز على أهداف في مدن عراقية عدة وكذلك في الكويت. إذاعة المملكة الأردنية وصفت الهجوم على العراق بالوحشي. إذاعة ليبيا طالبت بوقف القتال وانسحاب العراق من الكويت. بي بي سي قالت بان خسائر قوات التحالف أربع طائرات فقط بينها طائرتان بريطانيتان من طراز تورنيدو. وبثت إذاعة السودان بيانا باسم الحكومة حثت فيه الأطراف المتحاربة على وقف القتال وبدء المفاوضات. كان الليل قد حل وأنا أدور بين الإذاعات ملصقاً أذني اليمنى بسماعة جهاز الراديو، والصوت في أدنى مستوى له واضعاً الوسادة على رأسي وجسدي مغطىً بكامله بالبطانيتين لا يظهر سوى خيط الهوائي المعدني وهو منفلت من تحت الوسادة إلى الخارج. وبين جولة وأخرى كنت أطفئ الجهاز. أزيح جزءاً من الوسادة والطرف الأيسر من البطانيتين للتأكد من عدم وجود أصوات عبر موجة السرداب، ثم أعود إلى وضعي السابق. وهكذا أنقضت ساعات عدة دون أن أجد أية إذاعة تذكر شيئاً عن هجوم بقنابل ذرية أستهدف مدينة الموصل في ذلك اليوم.

****

استمرت الحرب، واستمر غياب أمي. كان لابد من استثناءات على الخطة الموضوعة. تعديلات يبتدعها حنان الأم يمكن اللجوء إليها في الظروف القاهرة، حتى لو بطرقة متفق عليها على باب السرداب أو إشارة صوتية تعبر إلي من خلال النافذتين، تطمئنني أن كل شيء بخير. لكن أي تعديل لم يجر ولم اقبض على دليل صوتي يشير إلى أن أهلي استخدموا ملجأ الحديقة. وواصل الصوت الذي يشبه صوتي توقعاته المأساوية، وتعميقه الإحساس لدي بالوحدة والظلم والخوف. كنت استمع إليه فقط دون إبداء ملاحظة أو الاعتراض علي أي شيء مما يقوله، وصدقته عندما أخبرني بأن أمي نقلت حصتي من حنانها إلى أخواتي وتخلصت مني بسجنها لي في السرداب والى الأبد.

****

الراديو كان خطي الدفاعي الأول في معركة صمودي ضد الجنون، وسلاحاً ذا حدين في مقاومة عزلتي والتجسس على العالم

الخارجي في آن واحد. كان لأي صوت يصدر عنه حتى وإن كانت مجرد وشوشة غير مفهومة فعلاً سحرياً يمنحني شعوراً بالأمان والألفة. وهكذا أدمنت التصاقي بالراديو كمن يسترق السمع من ثقب باب إلى عالم بأسره دون أن يرى أو يشعر به أي من سكانه.

قصف العراقُ "إسرائيلَ – الكيان الصهيوني" بعشرات من صواريخ "سكود –الحسين". باتريوت " نجحت – فشلت " في التصدي لها. حرب "عاصفة الصحراء – أم المعارك" تستمر وسط "تأييد– احتجاج" دولي. مرت ثلاثة أسابيع من الحرب، عبرت كل إذاعة عن أحداثها وفقاً لرؤيتها الخاصة مع شبه إجماع إذاعي على نبرة معادية للعراق. في حين أن صوت الأخير كان باهتاً بإذاعة يتيمة مستسلمة للتشويش المتعمد عليها، يختفي صوتها معظم ساعات الليل، ويظهر متقطعاً في النهار بأغاني وأناشيد الحرب الحماسية التي كنت أخافها لشعور داخلي لم استطع التغلب عليه أبدا، بأنني أنا العدو الذي تقصده كلماتها الحربية وليس ثلاثاً وثلاثين دولة اجتمعت لضرب العراق.

****

عصر يوم ألأربعاء السادس من شباط، كنت أنتظر انكماش آخر قطعة من قبة خبز رقاق المرشوش بماء الحب لحظة أن سمعت صوت انزياح إطار صورة صدام واحتكاك خشبه الثقيل بالأرضية خلف الباب. استجابت عضلات جسمي بخفة لحالة الطوارئ، واختبأت في الموضع الفراشي داخل حجرتي. طقطق القفل ثلاث مرات متتالية. سمعت صوتها مختلطاً مع أزيز الباب وهي تبسمل، ثم صوت نعليها المطاطيين المتيبسين تدق بهما الدركات مخترقة حاجز الصمت السردابي للمرة الأولى منذ شهر بأكمله.

انتبهت أمي إلى أنها أغفلت غلق الباب، فعاودت بجسدها الثقيل صعود الدرجات مواصلة ترديد البسملة. دفعته بهدوء وأدارت في قفله المفتاح مكتفية بطقة واحدة. طرت فرحاً برؤيتها وهي تفتح ذراعيها وتجذبني إليها في عناق طويل وراحت تمطر وجهي بالقبل. فعلت أنا مثلما تفعله ثم أخذت أشهق رائحتها بعمق للتعويض عن أيام فقداني لها. عيناها كانتا متورمتين ومحمرتين، لكنها لم تبك أمامي ربما لم يكن لديها وقت لذلك ساعتها. أجرت فحصا دقيقاً لمختلف أنحاء جسمي مستعينةً بما تبقى من ضياء النافذتين. تحسست شعر رأسي وذقني وتأكدت من حجم لوزتي. ضغطت على بطني ثم شمت ملابسي وقلبتني على سجادة الحجرة شبه المظلمة. قالت وهي تنزع الجوربين الصوفيين عن قدمي برؤوس أصابعها :

- كيف تحملت هذه الرائحة والثياب القذرة، لماذا لم تلتزم بالتعليمات.

أجبت هامساً قبل أن تبدأ بنزع ثيابي قطعة بعد أخرى :

- أرجوكِ، لا تنزعي ملابسي الداخلية.

علمت من أمي أن المنزل تعرض إلى ثلاث مداهمات لرجال الأمن والرفاق، خلال أربعة أيام من اختبائي. واحدة تفتيشية واثنتان استجوابية. وأن أم يعقوب بقيت مزروعة في مطبخ المنزل نهاراً كاملاً في محاولةٍ للحصول على دليل واحد عن مكان وجودي يسقط سهواً عن أفواه البنات. وان جدتي ثرثرت معها ساعتين متواصلتين بلا توقف عن العناية الإلهية التي تدخلت في تدبير أمورنا لمواجهة الحصار وحكايات ما قبل زمن الجمهورية. وقالت بأنها وعشية بدء القصف الجوي، أخذت أخواتي وجدتي بسيارتنا الكرونا التي يعمل عليها خالي زياد كسائق بأجرة يومية، ومكثوا في دار قريب لأبيها في ناحية النمرود شرق الموصل، وذلك بعد أن تأكدت من خلو معظم الدور في زقاقنا من سكانها هرباً من طائرات الشبح الأمريكية والصواريخ القادمة من الفضاء.

وبينما هي تدعك جلد ظهري بليفة خشنة في الحمام، ذكرت بأنها عادت للبيت بمفردها لوعدٍ قطعته بان تنزل إلي بعد مرور شهر. وقللت من مخاوفي بشان رجال الحكومة لانشغالهم بالحرب. وأكدت أنها رأت في طريق عودتها الكثير من الرفاق

الحزبيين وهم ملثمين باليشماغات، ومتحلقين حول إطارات سيارات تحترق في مداخل الجسور وفي التقاطعات المرورية.

ثم انتقلت إلى موجة صوتية اخف متحدثةً عن مشاهدتها لشاحنات عسكرية طويلة ملوثة بالطين، تجوب شوارع المدينة حاملةً صواريخ عملاقة وأخرى تحمل طائرات حربية بمناقير مدببة، ودبابات ومدافع بفوهات مغطاة، وأن هذه الشاحنات لم تكن تسير بنسق واحد كما كنا نشاهدها في الاستعراضات عبر التلفزيون، وإنما منفردة وكأنها هاربة وتفتش عن أمكنة آمنة لتختبئ فيها.

ثم قالت وهي تفرك شعري بصابون حلب:

– قصفوا معسكرات الجيش ومحطات الكهرباء والمياه وبدالات الهواتف".

قربت وجهها من رأسي الضائع في الرغوة وهمست بأذني اليسرى:

– يقولون بان صدام قتل داخل بيت في أطراف بغداد بصاروخين هبطا عليه من السماء.

ملأت أمي طشت خبز رقاق الفارغ بالمياه بعد أن جمعت فيه ثيابي المتسخة، وأفرغت فوقها كمية ربع علبة من مسحوق الغسيل علامة تايد. رفعت ثوبها إلى حدود الركبة، ثم دخلت الطشت بقدميها وراحت تدوس الثياب. ترفع رجلاً وتخفض أخرى، يمين يسار، والمياه والرغوة تطفحان من الجانبين. ذكرتني حركاتها

بالإيعاز العسكري"مكانك سر"، والعقوبات التي كان العرفاء يتفننون بفرضها علي، لأنني كنت في الغالب امتثل للإيعاز بالسير إلى الأمام أو الخلف.

قالت وهي تنهج:

– الحصار دمر الناس، والرئيس الأمريكي جورج بوش أكبر غبي في العالم، فصدام لن يجوع ولن يبيع شيئاً من ممتلكاته المنزلية في سوق باب الطوب لكي يشتري الخبز والطماطم.

أدهشني كلام أمي العميق. كان معها الحق بالفعل. فالشعب هو الذي عوقب بالحصار الاقتصادي وليس النظام، وتساءلت مع نفسي كيف فات هذا على عشرات المحللين السياسيين والإعلاميين الذين كنت استمع إليهم في الراديو، وتوصلت إليه أمي التي توقف نموها التعليمي عند الصف الثالث متوسط.

تعاونا على عصر الثياب بلي طرفيها كلٌ إلى جهة. قالت بأنها ستغلق مدخل الممر المؤدي إلى باب السرداب بباب آخر بعد انتهاء الحرب مباشرةً. وان أي مخلوق غيرنا إضافة إلى جدتي يجب أن لا يعرف بأمر وجودي في السرداب، لأن أخواتي غير مضمونات بالمرة عندما يتعلق الأمر بسر يتوجب حفظه، وقد يعترفن من الخوف بمجرد نظرة يلقيها عليهن واحد من رجال الأمن عديمي الضمير. أما خالي زياد فيحترم قدسية إشراك

زوجته بما في جيبه ورأسه، كما انه يعاني في الأصل من داء الحديث وهو نائم.

سارت أمي خلفي واضعة يديها على كتفي مثل الجنود المستجدين. تنقلت بها في ظلام السرداب برشاقة، وأنا استمع إلى تقرير مفصل عن سياستها في إدارة المنزل، بعد النقص العددي الذي حصل في سكانه باختفائي. والأشياء التي جلبتها لي من أرزاق جافة، بينها علبة كبيرة من حليب نيدو. وثياب نظيفة وذخيرة الراديو من البطاريات. وذكرتني بسلسلة التعليمات التي علي الالتزام بها لبقائي حياً. أهمها الصمت والنظافة البدنية. توقفت أمام الدرجات رفعت كفيها إلى مستوى وجهها، ثم قرأت سورة الفاتحة. وقبل أن تختفي خلف الباب ، قالت بصعوبة وهي تقاوم آلام عظامها:

- تأكد من أنني أغلقته جيداً.

****

السماء أيضاً دخلت الحرب. ومضات برقية خاطفة أطفأت في كل مرة عتمة السرداب لأجزاء صغيرة من الثانية، تبعتها ضربات رعدية بقيتُ طوال الليل أجفل من قصفها لتشابه دويها

مع أصوات تفجيرات الغارات الجوية التي كانت قد سكتت، وكأن هدنة ما عقدت في غفلة من الراديو.

كنت أشعر بالنظافة والدفء وأنا مدفون في فراشي الذي أضافت إليه أمي بطانية ثالثة مع غطاء صوفي ابتلع نصف رأسي وغطى الأذنين. تماماً كما اعتادت على فعله كل شتاء بعد أن تخرجني من الحمام عصر كل يوم خميس، وتكافئنا على رضوخنا أنا وأخواتي بمشاهدة كاملة لبرنامج سينما الأطفال مع طبق كبير من حب شمس أو الشامية *. افتقدتهن في تلك اللحظات وتذكرت ما فعلنه في بيت خالي زياد وأنا أودعهن قبل تنفيذ خطة هروبي المفترضة الى خارج البلاد. فقد تعاملن معي على أنني ميت وسيجري دفني بعد لحظات ولكل واحدة منهن بصمة وداع تريد وضعها على جثتي. فاحتاجت نسمة الى نصف بصلة وإبريقا من الماء لإيقاظها من غيبوبة وقعت فيها بعد أن احتضنتني بكل ما أوتيت من قوة، بينما إسراء كانت أكثر تماسكاً وأهدتني صورة رسمتها لي بقلم الفحم أظهرتني فيها بوجه مستدير ونظرةُ حزنٍ في عيوني. أما سندس فقد ألبستني في يدي ساعة الكاسيو الألكترونية دون أن تنظر في وجهي متصنعةً قوةً وصلابةً تبخرتا مع انهيار شمس وسعاد وأنا افتح لهما ذراعي فضج المكان بالبكاء والعويل. لاشك أنهن كن في تلك اللحظات يفتقدن مقدرتي الفائقة في إسعادهن، ليس فقط لأنني كنت الوسيط المثمر في مفاوضاتهن مع أمي لأصطحابهن في إحدى جولاتها

التسوقية أو إقناعها بمفردات قائمة مشترياتهن. وإنما أيضاً لدوري الفاعل في إنجاح مشاريعهن المنزلية باستخدامي موديلاً للرسم وآلة رافعة لتعليق أشيائهن أو تنزيلها من فوق الدواليب، وإكمال عددهن عندما ينقسمن فريقين في العاب تبديد أوقات فراغهن الشاسعة. ولا سيما أنهن كن ممنوعات من مواصلة الدراسة بقرار قديم من أبي جعل به الصف السادس الابتدائي نهايةً لطموحهن خارج المنزل. وفشلت جميع محاولاتهن في تعطيل القرار أو استئنافه في عهد سلطة أمي.

لم يكن ضياء صباح ذلك اليوم الممطر كافياً لإنارة الحجرة ومع ذلك لمحت شيئاً صغيراً تحرك بسرعة على السجادة واختفى خلف سلة الملابس. لم يكن أفعى لأنه كان شيئاً أقصر من أن يكون كذلك. كما أنه لم يكن عقرباً، فقد كان أسرع بكثير. واستبعدت أن يكون أبو بريصاً لأنه لا يستطيع السير إلا مقلوباً على الجدران أو السقوف. فلم يتبق أمام قلقي سوى تجسيم صورة فأر بذيل طويل مقرف، وحبات براز سود مقززة يتركها في كل مكان يتواجد فيه. بعد دقائق سمعت صوته، كان واضحاً ومطمئناً. وسرعته كانت أبطأ وهو يقطع المسافة بين سلة الملابس والباب. فكرت أن فأراً آخر ربما يكون قد دخل في فراشي دون أن انتبه إليه، وقد يكون العديد منها يملؤون الحجرة وربما المكان بأسره. ولكن أمي أعلنت تحريرها السرداب من الفئران بمصائد وزعتها بدهاء في مختلف الأنحاء مع حبوب قمح

مسمومة. وأكدت جدتي أنها تولت مهمة جمع جيفها بعد ذلك، وأعادت تلقيم المصائد بالعجين المدهون. وانتظرت نهاراً كاملاً جالسةً بصمت على درجات السرداب، دون أن تسمع نهيز فأر أو فرقعة مصيدة. وكان هذا واحداً من شروط اتفاقية اختبائي جرى تنفيذها في آخر أسبوع لي في مركز التدريب العسكري.

أحكمت غلق باب الحجرة لدى خروجي منها لضمان عدم تسلل الفأر مجددا. رائحة المطر كانت تملأ السرداب خارج الحجرات، مع نسمة هواء باردة بعض الشيء، اكتشفت أن مصدرها النافذة الثانية. إذ أن عصف إحدى التفجيرات أحدث كسراً في زجاجها بلغ حجم الكف أسفل جهته اليمنى القريبة من جدار الأسمنت. ولسبب ما كان في الشبكة المعدنية الواقية للحشرات شق صغير، تمكنت من رؤيته من خلال فتحة الكسر وكان كافياً لعبور فصيل كامل من الفئران.

تفجيرات متلاحقة وقعت ظهراً، كأنها تتسابق فيما بينها لحصد الأهداف، تأخرت صفارات الإنذار مجدداً في التنبيه بشأنها. تخيلت المدينة مثل أعمى ينتظر ضربة عصا على رأسه. يتلقاها ثم يبدأ بعدها بالصراخ ألما. جلست في موضعي القديم عند الزاوية بين جداري الخشب والاسمنت، فكرت بما يمكن أن يحدث لو أن الشاحنات التي تحدثت عنها أمي استُهدفت بالقصف وهي بالقرب من الأحياء السكنية. ماذا لو مرت واحدة منها في

الشارع خلف بيتنا حيث مساحة فارغة تمتد لمئتي متر منحدرةً نحو شاطئ نهر دجلة، أو ربما تركها سائقها هناك وفكر مثلي بالاختباء هرباً من الحرب.

فشلت مجدداً في كسر رقمي القياسي في لعبة كتم النفس. وعاود أبي ظهوره بالصورة التي يفترض أنه استشهد بها. إلا أن ملامحه وبخلاف ما قالته أمي، كانت ذاتها التي عرفته بها في حياته. أنف كبير بفتحتين مظلمتين، وجبين عريض يمتد مع استدارة جمجمته بصلعة واسعة وخدين متهدلين وفم واسع تغطي شفته العليا ستارة من الشعر الأسود الفاحم ترتفع قليلاً عندما يبتسم. بدت القطط في الخارج وكأنها تقلد أصوات صفارات الإنذار بمواء طويل. لطالما تجنبت أمي أسئلتنا عن هذه الأصوات الغريبة التي تصدرها القطط في مثل هذا الوقت من كل سنة، وكانت تطلب في كل مرة عون جدتي للتخلص من إلحاحنا وهي محمرة الوجه مثل تفاحة.

أستمر هطول الأمطار مع انطفاء النهار. أجبرني البرد على التزام موضعي من البطانيات بعد أن اقتحمت حجرتي وأوصدت بابها بسرعة، مستفيداً من الغطاء الصوتي للقطط لإبعاد الفئران عن طريقي.

أحببت في راديو ناشيونال باسونيك، ضوء مصباحه الأحمر الصغير بحجم حبة عدس، لأنه كان يكفي للكشف عن عالم ما تحت البطانية بمجرد الاستقرار على إذاعة ما. وفي ذلك اليوم

تحديداً أحسست بالضوء أكثر توهجاً مع عبد الحليم حافظ وهو يجرني معه بأغنية"زي الهوى"إلى حيث ياسمين. تذكرت ملامح وجهها الطفولي وعينيها الغارقتين بخضرة ربيعية وثياب الفراشات التي ترتديها، وخفقان قلبي وهي تحلق أمامي في أروقة كلية القانون. وكيف كنت أفقد سيطرتي على أطرافي عندما تضعنا الصدفة وجهاً لوجه. وتسكت الأصوات كلها عندما يزقزق عصفور صوتها داخل قاعة الصف الذي جمعنا سوية لأربعة أعوام كاملة دون أن نتبادل ولا حتى كلمة واحدة.

تحذيرات أمي وجدتي بعدم الاختلاط بالطلاب وعدم منح الثقة لأي كان، لم تكن هي وحدها التي منعتني من الاعتراف لياسمين بحبي الكبير. بل خوف داخلي من أن يوقفني تلعثمي، ويجعلني ترديدي الببغاوي لبعض الكلمات أضحوكةَ تسرد نكاتها فيما بعد لصديقاتها. وهذا سر انعزالي وانطوائي على نفسي داخل القاعة. دون أن يستمر أي حوار بيني وبين الزملاء والزميلات لأكثر من ثلاث أو أربع كلمات. كنت أشعر بنظراتهم الساخرة مني وربما المشفقة وهم يمرون بي أو يمدون لي بورقة توقيع الحضور اليومية أو عندما يأخذونها. حتى الأساتذة كانوا يتعاملون معي بطريقة مختلفة عن التي يعاملون بها باقي الطلاب. ولطالما رأيت في وجوههم ابتسامة قريبة من السخرية، لمحاولاتي المستميتة وأنا ارفع يدي وجسمي عن المقعد للإجابة عن سؤال. واختناقي بالكلمات وتكراري دون إرادة مني بعضاً منها مرات عدة

وبسرعة مثل رشقة أطلاقات بندقية محاولاً شرح فقرة معينة تتعلق بالمحاضرة. قسم منهم كانوا يتجنبون النظر في وجهي مباشرة، وينشغلون بتقليب أوراق كتاب، أو كتابة شيء ما على أوراق أمامهم. بينما أسرد مغمض العينين ما نسخته ذاكرتي من الكتاب حرفياً.

لم أحضر أي نشاط رياضي أو مناسبة من المناسبات الجامعية ذات الطابع الاجتماعي. فغبت عن حفلة التعارف في الصف الأول. وعن جميع حفلات تأسيس كلية القانون وجامعة الموصل وسفراتها الربيعية ومعارضها. لغاية حفلة التخرج التي اقتصرت مشاركتي فيها على فقرة تسلم الشهادة، والوقوف خلف ياسمين بصفين في صورة التخرج الجامعية التي بدوت الوحيد فيها من بين 43 طالباً برأس مثلث بسبب ميلان قلنسوتي إلى الوراء.

خلافاً لذلك كنت أواكب وبناءً على تعليمات منزلية مشددة على حضور حفلات ميلاد القائد. وتأسيس حزب البعث. التي كانت تقام في الجامعة خلال معظم أيام شهر نيسان من كل عام. وأحرص على أن أكون مميزاً قدر الإمكان بجلوسي في مكان ظاهر خلف الضيوف المهمين، بربطة عنق حمراء حاملاً بيدي علماً عراقياً صغيراً. كنت أول من يصفق وآخر من يتوقف عن ذلك بعد ذكر أسم صدام حسين مقروناً بعبارة حفظه الله ورعاه في الكلمات الكثيرة التي كان يتسابق رفاق حزبيون ومسؤولون بكروش كبيرة على إلقاءها خلال تلك الحفلات دون أن أفهم منها شيئاً.

في سنتي الجامعية الأولى لم استطع مطلقاً التغلب على شعور مزمن راودني بان هناك من يراقبني ويعد علي خطواتي سواءً داخل الكلية أو خارجها. وكثيراً ما وجدت حقيبة كتبي الجلدية بغير الوضعية التي تركتها في القاعة قبل أن اذهب إلى دورة المياه، أو أراجع أستاذا في مكتبه بين المحاضرات. وتضخم هذا الشعور لدي عندما استدعاني رفاق حزبيون ذات مرة إلى غرفة اتحاد الطلبة، وكانوا طلاباً في الكلية لكن في مراحل أخرى. أكدوا بأنهم يعرفون كل صغيرة وكبيرة عني وان بقائي مستقلاً دون الانتماء إلى حزب البعث العربي الاشتراكي بصفة مؤيد، مؤشر على عدم حرصي على امن وسلامة الوطن. وعندما أوصلني أحدهم ويدعى الرفيق فوزي إلى الباب قال وهو يداعب صيوان أذني اليمنى بأصبعين:

- لا احد يضحك على الحزب والدولة.

جارتنا أم يعقوب، مارست معي ذات الدور في مناسبات عديدة، عندما كانت تصطادني خارجاً من المنزل أو عائداً إليه. تقترب بأنفها المعقوف مدققةً النظر في جيب قميصي ومقياس أنتفاخةِ حقيبتي. ثم تطرح الكثير من الأسئلة عن كيفية إدارة أمي لشؤون المنزل المالية وما نملكه خارج حدود معرفتها، والمدة المتفق عليها عائلياً على ارتداء اللون الأسود حزناً على اختفاء أبي. وفي يوم ماطر قبضت علي في محطة وقوف الباص قرب

الحي وأخبرتني أن سيارة نوع تويوتا سوبر موديل 1982 حليبية اللون تجوب شارعنا ليلياً لمراقبة منزلنا. وأن مفارز الأمن والرفاق ستظل تداهمنا إلى أن يعرفوا تفاصيل كاملة عن أبي وعلاقاته قبل وفاته. وأقسمت لي وهي تكشف مبتسمة عن خراب أسنانها، أن قلب زوجها الرفيق أبو يعقوب يحترق حزناً علي وعلى أخواتي، خصوصاً بعد حجب مكرمة درجات القائد الدراسية عنا، ومصادرة أملاك والدي المنقولة وغير المنقولة. وطلبت مني أن احمد الله أن البيت مسجل باسم والدتي، وان قلب القيادة لان وأبقت على الأغراض المنزلية، بعد سحب سيارة الماليبو من كراج المنزل، ومصادرة دكاكين باب السراي، وسوق القطانين، وشقق حي الزراعي، وقطعة الأرض في حاوي كنيسة.

" هنا القاهرة " قاطع صوت المذيع تغريد العندليب، وتلا موجزاً للأنباء"أعلن العراق قطع علاقاته الدبلوماسية رسمياً مع كل من سورية والسعودية إضافة إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا بسبب المشاركة في الحملة العسكرية على بغداد". "كثّفت الطائرات الأمريكية والفرنسية والبريطانية غاراتها على المدن والمنشآت النفطية والاقتصادية العراقية وقال بيان عراقي إن قصف قوات التحالف لم يعد يميز بين الأهداف المدنية والعسكرية إذ أن الغارات الأخيرة استهدفت مدينة الناصرية مما أدى إلى مصرع 150 شخصاً بينهم 35 طفلاً ".

في صباح الجمعة، كشفت فيروز تهاوني في تنفيذ التعليمات، بنسياني إطفاء الراديو. كان صوتها يظهر لثوان ويختفي. والضوء الأحمر يحتضر كمؤشر على نفاذ البطاريات. سمعت قرضاً مصدره الحجرة الثالثة. طرقت بأظافر أصابع يدي اليسرى على خشب الجدار الفاصل بين الحجرتين، إلا أن القرض استمر وارتفعت وتيرته عندما كررت الطرق وكأن الفأر يتحداني ويحاول جري إلى معركة لفرض السيطرة على السرداب.

دوائر الضوء عبر الجدار الخشبي أوحت بصباح مشرق. ولأن فتحات مماثلة موجودة في باقي الحجرات أيضاً، أدركت بأنه الوقت المناسب لوضع حد لتصرفات الفأر الحيوانية وتسجيل أول انتصار لي على كائن حي في حياتي. أغلقت كسر النافذة بصفحات عدد قديم من جريدة القادسية سحبتها من عمود صحف طويل في الحجرة الرابعة. دعكتها على شكل كرة بعد أن تأكدت من أنها لا تحوي صوراً لصدام. نزعت نصف عصا متبقية من ممسحة أرض منتهية الصلاحية، وأغلقت بابي الحجرة الثالثة، وبدأتُ المعركة.

عملياً كان القبض على الفأر شبه مستحيل لكون الحجرة عبارة عن مخزن ضم بمحاذاة جدرانه الأربع ماعدا مساحة البابين، ستة عشر صندوق عتاد خشبي مستطيلة الشكل مطلية باللون الأخضر الغامق. مدونة عليها أرقام انكليزية بخطوط بيضاء عريضة. رتبت في خمس أعمدة، واحدة منها فقط مؤلفة

من أربعة صناديق، وفوق الأعمدة الخمس وزعت ثلاثة عشر حقيبة سفر جلدية مختلفة الأحجام.

أستغل الفأر وجودي في الممر الضيق الذي تشكله الصناديق بين بابي الحجرة، وأخذ يواصل القرض، وكلما طرقت بالعصا في اتجاه، ظهر صوت قرضه في اتجاه آخر. كان من الصعب تحريك الصناديق، فقررت إنزال حقائب الجلد لتخفيف الثقل وجمعها في جهة واحدة، قبل تحريك الصناديق الخشبية، وارتكاب الفأر حماقة الظهور أمامي.

سرعان ما داهمني فضول البحث في الحقائب، فوجدت في خمس منها ثياب العائلة الصيفية برائحة نفتالينية. وفي اثنتين ثياب خارجة عن الخدمة لي ولأخواتي في مختلف مراحلنا الحياتية وواحدة امتلأت بمناشف وأغطية غير مستعملة، وعثرت في واحدة أخرى على ثلاثِ باروكات، وأربعة أطقم ملابس داخلية نسوية، ومعطف جوخ اسود مطوق الرقبة بفرو بني برائحة قمر الدين، وحقيبتا يد نسائية من جلد الروغان الأسود والرمادي، وحذاء بكعب عال بلونين ابيض وأسود، وعلبة عطر ماركة مرسيدس غير مفتوحة. بينما انتفخت الحقائب الأربع الأخرى بملابس عسكرية متنوعة شتوية وصيفية، مع بساطيل وقبعات حمر وسود، وأنطقة وعصي خشبية قصيرة، تفوح منها جميعاً رائحة عفونة أصابتني بالغثيان.

صناديق العتاد كانت حبلى بآلاف من أوراق الأوامر والتعليمات والخطط العسكرية، مرتبة على شكل رزم حملت الصفحة الأولى في كل منها عنوان"سري للغاية"لمحتها فقط في عدة صناديق دون أن المسها، كأنها قنابل موقوتة يمكن أن تنفجر بوجهي في أية لحظة. صندوق واحد منها فقط، ضم سجلات متعددة الأحجام والألوان، وملفات خضر سمينة بالأوراق، عرفت من خلال العناوين المكتوبة بخط سيء على بعض منها أنها جرودات مخازن ومشاجب أسلحة، قلبت مسرعاً الفوقية منها برؤوس أصابعي وأنا متوقف عن التنفس لخوف لا إرادي اعتراني من احتمال أن تنتقل إلي عدوى ما منها، فكل ما هو عسكري كان بالنسبة لي وباءً مميتاً وقتها، ومهمتي الوحيدة كانت النجاة منها بأية وسيلة ممكنة.

دقت صافرات الإنذار معلنة عن غارة جوية وعن هدنة بيني وبين الفأر. التزمنا بها سوية، هو بالتوقف عن القرض وأنا مهيئاً نفسي لامتصاص صدمة تفجير يمكن أن يحدث في أية لحظة. انتظرت نصف ساعة جالساً على حقيبة البساطيل قابضاً بكلتا يدي على العصا مائلاً بها إلى الجنب، تحسباً لأي خرق للهدنة من قبل الفأر. راودني شعور غريب بأنني عشت الموقف من قبل وانه يتكرر بذات التفاصيل، لكنني لم اعرف أين ومتى. فتشت في قاموس ذكرياتي الفقير فلم أجد أية نسخة مطابقة باستثناء مواقف قريبة بعض الشيء، عشتها جميعاً في مركز تدريب مشاة

الموصل. تذكرت الليلة الأولى في حياتي التي قضيتها خارج المنزل بعد أن وصلت المعسكر مع عشرات من الجنود الآخرين ونحن محشورين داخل باص نوع ريم أخذنا من عند دائرة التجنيد وخلفنا أمي وخالي زياد بسيارة الكرونا ومعهما حقيبة رياضية تكاد تنفجر بالثياب، وبمربى المشمش وجبن مثلثات البقرة الضاحكة والكليجة وحلاوة الطحينية وكبة رز والعروق *.

منع حراس باب النظام أمي من الدخول ولم يعيروا أهمية لكونها زوجة الشهيد العميد ركن سالم أبو درع، أو تهديدها لهم بإيصال خبر أهانتهم لها إلى قريب أمها الفريق الأول ركن عبد الجبار شنشل وزير الدولة للشؤون العسكرية، فاضطرت لأخذي الى خلف هيكل سيارة إيفا عسكرية منزوعة الأبواب والإطارات وهناك أعادت تلقيني وللمرة الأخيرة لما يتوجب علي الالتزام به من تعليمات لتجنب الذهاب إلى الكويت والعودة منها بداخل تابوت. ذكرتني بتفاصيل خطة الطوارئ التي ترجعني إلى البيت حيث ملاذي السردابي الآمن. وعندما عانقتني مودعةً وهي تذرف الدموع، خفف عنها خالي بقوله أن فترة الثلاثة أشهر التي سأقضيها في مركز التدريب العسكري أقل بكثير من مجموع الساعات التي قضاها هو في الكراجات بانتظار حافلات تقله إلى الوحدات العسكرية التي خدم فيها طوال تسعة عشر عاماً جابت به العراق طولاً بعرض من زاخو شمالاً إلى الفاو في أقصى الجنوب قبل أن تجعله شظايا قذيفة مدفعية إيرانية معوقاً وعالةً على الوطن.

كنت نقطة الضعف الوحيدة في الفصيل الخامس للسرية الثالثة التابعة للفوج الثاني وعارها الأوحد. ومنذ أول هرولة صباحية لي حول ساحة العرضات، أدرك آمر الفصيل النقيب يوسف ومعه العريفان آمانج وعقيل بأن لا أمل لي بالانتساب إلى الدائرة القانونية كما تتيح لي شهادة كلية القانون. وأنني سأقضي فترة ما بعد التدريب الأساسي جندياً مكلفاً بخدمة أحد الضباط بصفة مراسل. لكوني الوحيد من بين خمسين جندياً في الفصيل أخطئ بين اليمين واليسار وأخلط بين إيعازي ثابت واستعد وأدخل نصف الفصيل في حالة من الفوضى عندما أطبق إيعاز يميناً تراصف أو عادةً سر. ولم تجدي بعدها جميع عقوبات الزحف وشناو بطن والهرولة وحلاقة نمرة صفر واترك الأرض* وبروك الجمل*، في دفعي للخروج عن تعليمات والدتي وجعلي جندياً صالحاً للخدمة في الجيش العراقي. كنت وعلى الرغم من بكائي وصراخي من الخوف والألم والتعب، ملتزماً جدا بعبارة نفذ ثم ناقش المخطوطة في كل مكان داخل المعسكر ويرددها آمر مركز التدريب باستمرار ونحن نرتجف من البرد صباحاً في العرضات. وفي أسبوع تدريبي الرابع وكان طويلاً *. أشرف آمر السرية الرائد صلاح الدين بنفسه، على وضعي نصف عار في الخيسة*، وهناك قرر بعد مناقشة قصيرة مع النقيب يوسف، بأنني جندي مشاة ميئوس منه وسأكون حملاً ثقيلاً على باقي الصنوف أيضاً،

لذا فأن أعمال الخدمة هي أنسب شيء لي خلال فترة التدريب الأساسي، على أن لا اقترب أبداً من المشجب.

وهكذا قضيت الأسابيع الثمان المتبقية لي في معسكر التدريب، أساعد الفرّان في إعداد الصمون الذي كان يشبه كرة صخرية مليئة بقطع الزجاج وشظايا الخشب والحصى. وإيصال قصعات الطعام ودلو الشاي إلى قاعة سريتي وكنس أرضيتها من أعقاب السكائر وقشور بذور عباد الشمس. ورش الماء أمام بوابتها الكبيرة لطرد الغبار، وحراستها أثناء انشغال العرفاء بتعذيب زملائي بالتدريب في ساحة العرضات مع واجب عصري بتنظيف دورة المياه ومساعدة العرفاء مساءً في كتابة ملاحظات عن مجريات اليوم في سجلاتهم لأنهم لم يكونوا يتقنون القراءة والكتابة.

أسعدتني مهامي الجديدة لأنها غير مميتة في الحرب. وهلهلت أمي فرحاً عندما أعلمتها في إجازة الخميس والجمعة بالانتقالة النوعية في حياتي العسكرية، وتفاخرت أمام أخواتي بأن ذلك نتيجة لعقلها الذي يوزن بلد، كونها نجحت بفضل الخطط التي وضعتها في جعلي غير نافع عسكرياً، وبالتالي أبعدتني عن دائرة الاهتمام في الجيش، بينما ذرفت جدتي دموع فرحتها بي وقالت وهي تمسح زجاج إطار صورة أبي في الصالة:

– حبيبي سالم أبنك صار رجال.

ظهر الفأر أمامي مباشرةً فوق الصناديق قرب الباب المؤدي إلى حجرتي، أقترب من الحافة بتردد وهو ينظر ناحيتي. كنت ما أزال ممسكاً بالعصا على طريقة لاعبي البيسبول. الصوت الذي يشبه صوتي بدأ بالعد من واحد إلى ثلاثة. كانت فرصتي كبيرة في إصابته بضربة أفقية تكنسه وتعيد السلم إلى السرداب، لكنني لم أفعل. تقابل وجهانا للحظات، قبل أن يلتفت بأذنيه الكبيرتين ويتسلق جدار الخشب بسرعة خاطفة ويختفي عبر إحدى فتحات الضوء.

العريف أمانج فعل هذا معي أيضا عندما قبض عليّ الرائد صلاح الدين متلبساً بنقل قصعة ممتلئة بالدجاج المسلوق من بهو الضباط إلى زملائي في الفصيل. وخلصني من بين يدي الكافر عريف عقيل الذي مسح بي شارع حظيرة الأمن دحرجةً وزحفاً. وتبرع أمانج بإكمال باقي فقرات عقابي طوال النهار خلف المستودعات. وهناك فاجأني بطيبة قلب غير متوقعة. ناولني صمونة مدنية وقطعاً من بسكويت مدور، وطلب مني الجلوس مقرفصاً لكي أظهر من بعيد لمن يشاهدني أنني أنفذ عقوبة بروك الجمل.

سألني وهو يمسح انفه المحمر بظاهر كفه الأيسر:

– هل صحيح أن أباك محكوم بالإعدام غيابياً، وأنهم صادروا أموالكم المنقولة وغير المنقولة.

هزرت راسي نافياً :

- أبي شهيد.

أدار وجهه الطفولي في الاتجاهين، ثم قال بصوت خافت كمن يبوح بسر كبير:

- سمعت ضباطاً في البهو يقولون أن أباك سرق خلال الحرب مع إيران عشر مسدسات نوع برونيك غير مستخدمة مع ذخيرتها من أحدى المشاجب ورواتب فوج كامل كان بإمرته، وهرب ملتحقاً بالعصاة*.

لم أكن أملك من أدوات الاحتجاج غير ابتسامة بلهاء ساخرة رسمتها على وجهي، وأنا انظر إلى رتل نمل أسود يسير على التراب تحتي. قلد أمانج جلستي بحيث كادت أن تلتصق ركبتانا. قال بتودد:

- أياً كانت الحقيقة، فسببها الحرب وكلانا ضحية لها.

لم أفهم ماذا يقصد بكلينا، سألته مستفهماً، فأجاب:

- أستشهد أخي الكبير في معركة المحمرة *، وعمي الأصغر في مندلي، وهذا لم يشفع لأبي، فأخذوه على الرغم من كبر سنه كمقاتل إلى البصرة في صفوف الجيش الشعبي.

امتلأت عينا أمانج بالدموع وهو يقطع رتل النمل بعقب سيكارة:

- كان هذا قبل نهاية الحرب بأشهر قليلة، ولم يعد إلى البيت لغاية الآن. لم نعثر له على جثة، ولم يعلن الصليب الأحمر عنه كأسير في إيران، فسجل رسميا على انه مفقود.

تكسرت نبرة صوته:

– ما ذنبنا أنا وأنت، لماذا وقع علينا كل هذا الظلم ؟.

حاولت التخفيف عنه، لكن الكلمات لم تسعفني ورغبتي في البكاء كانت أقوى. فرحنا نبكي سويةً مثل طفلين اكتشفا للتو أنهما يتيمان. وهكذا نشأت أول وآخر علاقة صداقة حقيقية بيني وبين شخص خارج أسوار المنزل.

ندت عن قفل باب السرداب طقطقاته الثلاث المحببة. لم اختبئ هذه المرة. راقبت أمي وهي تهبط مع كيس مئونتي الأسبوعية السمين. كانت متحمسة لأعلامي عن ما يدور في العالم الخارجي، لذا لم تهتم كثيراً بفوضى الحقائب في الحجرة الثالثة، كما أنها لم تبد أية ملاحظة عن نظافتي الجسدية. وضعتُ رأسي في حجرها بعد أن جلست على فراشي مسندةً ظهرها بجدار الخشب لإراحة فقراتها. وسلمتُ شعري لنبش أصابعها كما اعتادت على فعله معي في حياة ما قبل السرداب.

ذكرت بأن معظم الأهالي عادوا من القرى والبلدات الصغيرة التي اختبئوا فيها خلال الشهر الأول من اندلاع الحرب. وأنني الذكر الوحيد الباقي في الحي بدون واجبات أمنية، فهنالك من ذهبوا للحرب كضباط ومراتب أو ضمن الجيش الشعبي، والطلاب والموظفون يتولون الحراسات في مداخل الحي، بعد أن سلمتهم الفرقة الحزبية بنادق وذخيرة وحراباً. وقالت بان الرفيق أبو يعقوب ذهب مع آخرين إلى الكويت كجنود احتياط، وان زوجته تقضي

نهار الأحد في بيعة الفيصلية تصلي وتشعل الشموع من أجل عودته سالماً.

اكتست نبرتها بالحزن وهي تصف الوضع العام في المدينة في ظل نقص المواد الغذائية والعلاجية والمحروقات. والانقطاع التام للتيار الكهربائي والمياه، ولجوء الأهالي إلى البدائل بحفر الآبار في حدائقهم، أو خلط غاز الطباخات السائل بالنفط الأبيض للحصول على وقود لتشغيل المركبات. دارت برأسها يمينا وشمالاً وهي تكرر:

- بعيداً عنك ألف مرة .

ثم قالت وهي تضع كفها الأيمن على عينيّ وكأنها تحاول حجب الصورة عني:

- اللافتات السود انتشرت على الجدران، ومجالس العزاء على أرواح الشهداء في كل مكان.

تاهت أمي في لحظة شرود، سألتها وأنا أمسك كفها بيديّ:

- كيف استشهد أبي، ولماذا تابوته كان فارغاً ؟.

فاجأها سؤالي. بلعت ريقها وحركت فخذها الأيمن تحت رأسي وأخذت تبكي بحرقة. أمي وبخلاف ما تبدو عليها تصرفاتها من قوة وصلابة. رقيقة من الداخل مثل فراشة، والحزن لا يغادر ملامحها. كأنها خلقت لكي تبكي. وهذا ما تسبب بإصابتها بقائمة طويلة من الأمراض كارتفاع ضغط الدم، والخفقان وهيجان القولون واضطرابات المعدة والصداع المزمن. وبعد فقدانها لأبي

أصيبت بجنون الأكل، حتى صارت جزءاً من المطبخ وتحولت بمرور الأيام إلى نصف فيل.

شهقت بعمق، وقالت بأن جدتي حكت لي القصة عشرات المرات. قبلتُ إبهامها، وأخبرتها بأن لقصة جدتي رواياتٌ عدة، وفي كل مرة كانت تضيف أحداثا وتفاصيل جديدة تختلف عن سابقتها. بعضها خيالية ولا يمكن تصديقها أبدا. وضعَت راحة يدها على فمي لكي أتوقف عن الكلام، قالت وهي تلصق رأسها بالجدار :

– الرواية الوحيدة التي نعرفها جميعاً أن قذيفة سقطت عليه مباشرة شرقي البصرة وهو يتقدم جنوده لصد هجوم إيراني، ولم يبق منه شيئ.

أضيف السعال إلى نوبة بكائها، فصارت ترتج ويرتج معها الحائط الخشبي خلفها. كانت رائحة الحناء تفوح من شعرها وأنا اقبل رأسها لاستعادتها من نوبة الهستيريا التي دخلت فيها. قالت بعد حين وهي تعيد رأسي إلى حجرها:

– المهم انه استشهد دفاعا عن الوطن، وعليك أن تكون فخوراً به على الدوام.

سمعنا صوت قرض الفأر. دفعت رأسي بعصبية ونهضت بصعوبة وهي تئن من وجع المفاصل. نادتني من الحجرة الثالثة لأعيد الحقائب الجلدية إلى أماكنها، وطافت أرجاء السرداب

مجريةً كشف الدلالة على الوجود ألفأري. سمعتها تقول بعد أن ضبطت كومة براز داخل هيكل مبردة الهواء:

- لا يمكن الاعتماد على حماتي في أي شيء.

****

مرت الأيام، وتوالت كوارث الحرب، ففي الثالث عشر من شباط قتل أكثر من 400 مدني معظمهم من الأطفال والنساء بهجمات جوية أمريكية على ملجأ كانوا يختبئون فيه في منطقة العامرية ببغداد. وفي الخامس والعشرين من شباط أعلن صدام حسين انسحاب القوات العراقية من الكويت بعد سبعة أشهر من احتلالها، ووافق على قرارات الأمم المتحدة الخاصة بدفع تعويضات للكويت والتخلي عن فكرة أنها جزء من الأراضي العراقية. ومع ذلك استمرت قوات التحالف بشن الهجمات على القوات المنسحبة لترتفع أعداد الضحايا خلال ستة أسابيع من الحرب إلى نحو مئة ألف قتيل عراقي، وضعفي أعدادهم من الجرحى والمعاقين والأسرى. وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من شباط، أعلنت قوات التحالف الدولية عن وقف الإعمال الحربية، بعد قبول العراق بشروطها كافة.

في ذلك اليوم تحديداً، اكتشفت أن الراديو يلتقط بث الكثير من الإذاعات أسفل نافذتي السرداب. وحتى إذاعة جمهورية العراق استعادت عافيتها هناك، ومنها استمعت إلى إعلان انتصار العراق في أم المعارك، في حين أن الإذاعات الأخرى التي أكتظ بها الراديو، تحدثت جميعها عن انتصار قوات التحالف في حرب عاصفة الصحراء وتحرير الكويت من الاحتلال العراقي.

عند الظهيرة، سمعت أصوات أطلاقات نارية كثيفة في الخارج، فأدركت على الفور بأن الأهالي يحتفلون بانتهاء الحرب. تخيلتهم وهم في الشوارع أو على أسطح المنازل يسددون فوهات بنادقهم ومسدساتهم نحو السماء كما اعتادوا على فعله في مناسبات الفرح والحزن على حد سواء. ولا احد يعرف على وجه الدقة إن كانوا يحتفلون حقاً بالنصر في الحرب أم بنجاتهم منها. وعلى أية حال كانت تلك أول تجربة لي مع الوطن وهو يحتفل بالهزيمة.

انتهاء الحرب خارج السرداب، كان يعني بالنسبة لي انتهاء الهدنة داخله، فتوجب علي إعادة العمل بالتدابير الاحترازية التي كنت قد تراخيت في تطبيقها بعض الشيء، كتنشيف حوض مغسلة الحمام من المياه باستمرار، وإعادة وضع قطعة الصابون في كيس بلاستيكي بعد الاستخدام، مع تعديل في استعمال المرحاض وجعله ليلياً، وسكب المياه بإفراط لمحو أي أثر أو رائحة مع إخفاء الإبريق وكيس الصابون. والتزام مكان واحد قدر الإمكان خلال النهار، والامتناع عن إخراج جهاز الراديو خارج

حدود حجرتي، والإبقاء على أبواب الحجرات الأخرى مغلقة على الدوام. ولاعتدال درجات الحرارة، نقلت السجادة والبطانيات إلى الحجرة الأولى، لتدعيم الحواجز، وتضييق الممر المشكل من المفروشات والعدد والأدوات المنزلية المرتبة على الجانبين فوق مصاطب خشبية. ولإخفاء مكان نومي وإنشاء ما يشبه الموضع فوق فراشي، استعنت بغطاء ثلاجة عشتار كارتوني وفلينه، وستة صناديق كرتون بيض مائدة محشوة بأقمشة ستائر وأغطية منامات، ووسائد صوفية وأسفنجية متعددة الأحجام، وثمانية صناديق بلاستيكية سوداء بما فيها من زجاجات حليب فارغة.

عصر يوم الاثنين الرابع من آذار، دار المفتاح في قفل باب السرداب بسرعة غير معتادة. انزلقت في موضعي متخذاً وضعية السجود وأنا مرتعب بعد سماعي لصرير الباب الحاد وارتطام مقبضه الكروي الحديدي بالحائط. صور لي خوفي وجوه عدد من الرفاق بينهم أبو يعقوب، يهبطون إلى السرداب مدججين بالأسلحة وملثمين باليشماغات، وأنهم لن يحتاجوا سوى إلى دقائق قليلة فقط ليكتشفوا مخبأي، ويسحبوني وأنا شبه مشلول إلى عتبة منزلنا ويعدمونني هناك أمام حشد من الجيران، وسيكون ذلك النصر الوحيد الذي تحقق لهم في أم المعارك.

مرت الثواني ثقيلة، درت برأسي يميناً ويساراً فلم تلتقط أذناي غير الصمت. الصوت الذي يشبه صوتي، أخبرني بأن فوهة بندقية كلاشنكوف ستخترق ظلام موضعي في أية لحظة وتنيره

برشقةٍ من رصاصات الحارق الخارق ممزقةً جسدي وتضرم فيه النار. استلقيت على ظهري مهيئاً نفسي للمداهمة الكلاشنكوفية أو أيد ترفع سقف موضعي الكرتوني، كتمت نفسي وبدأت بالعد، وبعد أقل من دقيقة، سمعت صوت جدتي وهي تقول:

– وينك ثائر أطلع صدر عفو عنك.

سحبت جدتي صورة صدام إلى موضعها، وأطبقت باب السرداب بعد أن طلبت منها ذلك. أكدت لي أن أخواتي لم يعرفن شيئاً عن وجودي، لأن أمي واجهت فرحتها وفقدانها السيطرة على نفسها بجمع البنات في المطبخ، وطلبت منها المجيء إلي وإعلامي بالخبر أن الحكومة أعلنت عفواً عاماً عن جميع الجنود والضباط الفارين من الخدمة العسكرية.

أوضحت لها بأنني علمت بهذا من الراديو صباحاً، وأنني أعتقد بأنه كمين للقبض على العسكريين الهاربين من الحرب وتحميلهم مسؤولية الهزيمة، وطلبت منها إبقاء الأمور على حالها، لعدم وجود مبرر للمجازفة. اندهشت جدتي من اتخاذي لأول قرار يخص حياتي دون أن يكون لها أو لأمي دور في صياغته أو إصداره. حدثتني بسرعة معلقي مباريات كرة القدم عن الوضع العام لمدينة الموصل. وكيف أنها علمت من فتاحة فال جوالة بوجود عمل سحري لمنع أخواتي من الزواج، وهو مدفون مع رفاة طفل في مقبرة واد عقاب*. وأن ألأمطار الوفيرة ذلك العام رفعت سنابل القمح المزروعة في الأرض التي ورثتها عن أبيها في

الحمدانية شبرين عن الأرض. حمدت الله وهي ترفع وجهها نحو سقف السرداب:

– راتبي التقاعدي وواردات بيع محصول القمح، وسيارة الكرونا التاكسي، وبدلات إيجار منزل والدتك في حي الزهور، ستجعل بيتنا خارج تأثيرات الحصار الاقتصادي ولزمن طويل.

ترددت جدتي في السير ونحن نقترب من الدرجات. توقفت أمامها كما تفعل أمي كل مرة. تلت عدداً من الأدعية، ثم رفعت كفيها وقرأت سورة الفاتحة بصوت عال مرتين متتاليتين.

****

في الأول من آذار كان جنوب العراق قد اشتعل بانتفاضة شيعية انطلقت شرارتها الأولى من البصرة واستمرت 14 يوماً، سقط خلالها الآلاف من القتلى، بين المنتفضين وعناصر الأجهزة الأمنية، وفي غضون ذلك كانت انتفاضة أخرى تجري أحداثها في محافظات الشمال الكردية. واجهتها قوات الجيش العراقي بالنار، ونزح أكثر من مليون شخص صوب حدود إيران وتركيا، ليلقي المئات مصارعهم هناك من شدة البرد والجوع وهم مطوقون بالثلوج في الجبال. وفي الخامس من نيسان الذي صادف التاسع عشر من رمضان، اصدر مجلس الأمن الدولي بناءً على مقترح فرنسي

بدعم أمريكي القرار رقم 688 في جعل محافظات اربيل ودهوك والسليمانية ضمن منطقة خاصة خارج سلطة بغداد الإدارية، ومنعت الطائرات العراقية العسكرية وحتى المدنية من التحليق فوقها. ثم دخلتها قوات حفظ السلام الدولية.

مارست إدماني الإذاعي بشغف يومي لمتابعة خيوط أحداث ما بعد الحرب، ومحاولة اكتشاف الحقائق التي حاولت جهات الصراع المختلفة داخلياً وخارجياً إخفائها وإظهار ما يتوافق منها مع مصالحها. وكانت كل جهة تنجح وبسهولة تامة في الحصول على تعاطفي من خلال طروحات ممثليها أو المنظرين لها، فأقتنع تارة بما يقولوه ثوار الانتفاضة الشعبانية عبر إذاعة صوت العراق الحر المعارضة لنظام صدام، وتمتلئ عيوني بالدموع وأنا استمع إلى قصص الناجين من القمع. وأوافق تارة أخرى على ما استمع إليه عبر إذاعة جمهورية العراق في أن ما جرى جنوب البلاد وشماله عبارة عن غوغاء أو صفحة غدر وخيانة، وأنها كانت المرحلة الثالثة من العدوان الأمريكي على العراق بتدمير المؤسسات الحكومية والممتلكات العامة بأيدي أبناء الشعب. وأعادت إذاعة الكويت إحياء دراستي للقانون الدولي في الكلية من مقبرة ذاكرتي من خلال تأكيد برامجها المستمر على أهمية استعادة السيادة براً وجواً وبحراً من الاحتلال العراقي الغاشم. ودوختني الإذاعات الغربية الموجهة باللغة العربية بما فقده العراق من سيادته براً وجواً، وجعلتني ارتاح إلى فكرة استقلال الكرد في

الشمال بمنطقة خاصة بهم، بعد سنوات من الاضطهاد والقتل بدافع قومي.

العديد من رجال الحي العسكريين والمدنيين الذين ذهبوا للحرب لم يعودوا منها، بعضهم اقتيد أسيرا إلى السعودية، وآخرون قتلوا في الكويت أو على مشارفها. وكان من بينهم أبو يعقوب الذي استدلوا على جثته المتفحمة جنوبي البصرة من خلال قرص التعريف المعدني الذي وجدوه مغروساً في رقبته مع جزء من سلسلتها. أما سكان الحي من الضباط الذين نجوا فقد أحيلوا فور عودتهم إلى التقاعد بغض النظر عن أعمارهم ورتبهم. واندمجوا بسرعة في جيش العاطلين المدني، ليمتلئ بهم الجامع ومقر الفرقة الحزبية ومقاهي شارعي الدواسة وحلب. وكانوا يمثلون بالنسبة لي خطراً جديداً لأنهم كانوا يحاولون نسيان أهوال الحرب بالنميمة على السكان ومراقبتهم. وقضاء أوقات فراغهم الواسعة في البحث عن التفاصيل الدقيقة لكل عائلة ومناقشتها في تجمعات ما بعد كل صلاة. أو خلال مباريات الطاولي أو الدومينة التي كانوا يخوضونها على الأرصفة. استجوبوا أمي وجدتي مرات عدة عند دكان خليل البقال. أرادوا معرفة السبب الذي جعل عائلتنا الوحيدة التي ليس لديها صفحة ديون في الدكان. والسر الذي جعل امرأتين أرملتين مع أربع بنات وأخرى مطلقة مع طفلتين، صامدات بوجه الحصار الاقتصادي الخانق ورافضات لمعونات الجامع الرمضانية، أو مساهمات الجيران التكافلية. وتجرأ احدهم

ذات يوم وسأل جدتي وهي تخرج من دكان الخضار عن البلد الذي استقريت فيه، وان كنت قد أوفيت بوعدي وأرسلت النقود التي سرقتها من المنزل قبل هروبي.

– درع الصحراء: كانت هذه هي التسمية الإعلامية لتلك الحرب في ساعاتها الأولى قبل أن تصبح(عاصفة الصحراء).

– الشامية: اسم يطلقه أهل الموصل على الذرة المفرقعة بالحرارة. تسمى في أماكن أخرى (بوشار أو فيشار).

–العروق: أكلة تشتهر بها مدينة الموصل. تسمى في أمكنة أخرى(خبز عروق).

– أترك الأرض: عقوبة كانت تفرض في تدريبات الجيش العراقي. يتوجب فيها على الجنود تسلق شيء وإلا عوقبوا بضرب مبرح.

– بروك الجمل: عقوبة قاسية كانت تفرض في تدريبات الجيش العراقي.

– الخيسة: حفرة ممتلئة بالمياه الآسنة، يعاقب الجنود المخالفين بالخوض فيها.

–الأسبوع الطويل: ويعني خمسة أيام في الأسبوع ماعدا يومي الخميس والجمعة كأجازة يضاف إليها يوم الأربعاء في الأسبوع القصير.

– العصاة: تسمية كانت تطلق من قبل النظام العراقي على المقاتلين الكرد في جبال كردستان.

– مقبرة وادي عكاب: تقع غربي مدينة الموصل.

افتح يا سمسم

مرت سنة كاملة على اختبائي في السرداب. مرت كسلحفاة طاعنة بأيامها وساعاتها البطيئة والثقيلة وأنا في عالمي الصغير المحدود مثل قبر أجاهد فقط من اجل البقاء حياً أطول فترة ممكنة وغريزةُ ما كانت تنثر صوراً لإعدامي رميا بالرصاص في أرجاء ذهني كدافع لا إرادي للصمود وعدم الاستسلام.

السجناء وحدهم يعرفون المعنى الحقيقي للصبر. يعيشون تجاربهم الجسدية والنفسية بتفاصيل غير منقوصة. فيشعرون بآلام الأمراض وأوجاعها إلى أقصى المديات. ويمنحون ذكرياتهم القديمة وهي تمر في البال كل ما يملكوه من حزن ودموع ويضحكون ملء أفواههم لأتفه لحظة سعادة تصادفهم ويخترعونها لأنفسهم إذا لزم الأمر لكي لا تجف قلوبهم. توصلت إلى هذه القناعات الإنسانية بعد أن صرت واحداً منهم، بل وأحيانا كنت أحسدهم لأنهم مُعلنون ويواصلون حياتهم في المساحات والمدد المقررة لهم في سجونهم. خلافاً لسجوني السرية المتداخلة التي لم أكن فيها سوى شبح لا أكثر.

خلال سنتي الأولى، تعلمت بعض الحيل لتوسيع رقعة الحياة السردابية وتقليص ساعات الليل أو النهار الى أقل ما يمكن. فأتخيل وأنا استمع مغمض العينين إلى عبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش أو سعدون جابر أو رياض احمد في الراديو، أنني انأ من

يغني وياسمين تركض أمامي أو نسير سوية بين أشجار غابات الموصل أو تطقطق بجفونها ذائبةً من الخجل بينما أمسك يديها ونحن على متن زورق يتمايل في نهر دجلة. ويتغير سيناريو القصة المتخيلة بحسب موضوع الأغنية حزناً أو سعادة. فتتحول ياسمين في اليوم الواحد من زميلة دراسة أبتسم لها ببراءة العصافير وأفتش عن طريقة للحصول على مكان قلبها إلى حبيبة أنصهر معها حباً، أو شاكياً غدرها لي. نتزوج ونفترق. نعيش ونموت. وعلى الرغم من الساعات الطويلة التي قضيناها سوية في أحلام يقظتي أنا وياسمين. لكنني لم أحصل أبداً على قبلتي الأولى ولم تقل هي شيئاً ذات يوم تجاري به حبي الكبير.

تعلمت أيضاً كيف أروض شبح أبي وأمتن الخيط الرفيع الذي كان يربطنا في حياته. حكيت له خلال ظهوراته الليلية عن ما فاته من قصص طفولتي ومراهقتي وبعضٍ من الأسرار التي لا يفهمها سوى الرجال. كنت استمتع بتطور علاقتنا ووصولها إلى مرحلة اعترافي لحضرته باحتلال ياسمين مساحة كبيرة جدا من قلبي وقضيت ساعات كثيرة أسرد له تفاصيل مشاهداتي لها. ألوان ثيابها الصيفية والشتوية والربيعية وفصالاتها. حقائبها، أحذيتها، أقلامها، دفاترها، حركات يديها ورأسها ومشيتها، وعدد المرات التي اقتنصت فيها خصلات شعرها البني وهي تتسلل إلى الخارج في غفلة من ربطة رأسها. والمرات التي التقط فيها أنفي رائحة عطرها وأنا امشي خلفها مثل مسحور في أروقة الكلية. كان يبتسم

بفخر أبوي لوقوع أبنه الوحيد في الحب ويهز رأسه أسفا وأنا أشكو له عدم مقدرتي على التواصل مع الآخرين وسوء فهم الناس لي وأنا أتأتئ أمامهم كلما أردت الحديث في شيء مهم، وكان هذا سبب انكساري المزمن أمامهم. وذات ليلة واجهته بالحقيقة واتهمته بتحمل مسؤولية ذلك لكونه انشغل عني ببناء مجده الحربي وأثقال كتفيه وصدره بالنجوم والأنواط واعتقد مخطئاً بأن حنان الأمهات والأموال يمكن أن تعوض وجود الآباء ومراقبتهم لأبنائهم وهم ينمون باستقامة مثل أشجار. قلت له بأن التوقيع الذي كان يمهره على ورقة النتائج الامتحانية الشهرية، الشيء الوحيد الذي يذكره بي أو يحسسه بوجودي في حياته. لذلك كان ارتفاع معدلات الدرجات هدفاً أستمت من اجله لكي اقبض على لحظة رضاً أجدها مرسومة في ملامحه. أو أستمع منه ولو لمرة واحدة على جملة فيها كلمة بني. لكنه لم يقلها أبدا وحينما كان يرِد أسمي في الحوارات التي يجريها مع أمي أو جدتي في الإجازات المتباعدة التي يقضي منها ساعات قلائل في البيت، كنت أشعر بأنه ليس لي وان المقصود به شخص آخر غيري. ومثل ياسمين، كان أبي يكتفي بالنظر إلي دون أن يرد بكلمة، وبعد تلك الليلة صار يظهر واجماً حزيناً وكأنه فوت على نفسه أشياء لن يتمكن مطلقاً من اللحاق بها.

****

يوم الجمعة العاشر من كانون الثاني سنة 1992، كان تأريخياً بالنسبة لي. فبالإضافة إلى أنه كان يسبق يوم اجتيازي السنة الأولى من عمري السردابي. حصلت أيضاً على مكافأتي الأولى وكانت عبوتان بلاستيكيتان بيضاوين في كل منهما خمس لترات من النفط الأبيض، كحصة أسبوعية مع علبة ثقاب فيها أربعة عشر عوداً، لأستخدم وبدون أخطاء اثنتين فقط كل يوم. وفانوساً أزرقاً بفتيلة غير مستعملة، قدمتها لي أمي في جو احتفالي مع حزمة تعليمات أمنية جديدة تعلقت بضرورة التزامي بأوقات تدفئة وإنارة محددين بساعة صباحية وأخرى ليلية، على أن لا أكون خلال أيا منهما مندساً في الفراش لتجنب مخاطر الانطفاء المفاجئ لأي منهما وتسرب ثاني أوكسيد الكاربون القاتل. كما حدث قبل تسع سنوات لعائلة تسكن في مدخل حي الضباط، عندما فقدت اثنين من أفرادها استنشقا وهما نائمين دخان مدفأة علاء الدين انطفأت فجأة وظلت الفتيلة الساخنة تشفط النفط الأبيض وتحوله إلى سموم. وذكرتني أيضاً بقصة جدتي الشهيرة عن ابنة خالة لها حولها حريق تسببت به مدفأة علاء الدين إلى جثة متفحمة. ولولا شجاعة جدي الشاب وقتها، لألتحق بها ثلاثة من أطفالها الذين كانوا محاصرين باللهب والدخان داخل منزلهم القريب من منزل جدي في حي الميدان. وحذرتني كذلك

من إخراج المدفأة أو الفانوس خارج حدود الحجرات إلا في حالة ملئي لخزانيهما بالنفط الأبيض وهما مطفأين في الحمام.

الفانوس، كان سلاحي الثاني بعد الراديو للصمود بوجه العزلة والانتصار على الظلام. بل كان السبب في الانعطافة التي طرأت لاحقاً على شخصيتي، عندما ساعدني على استخراج كنز كبير جاورني عاماً كاملاً دون أن اعرف كلمة سر تدخلني إليه. فعل الفانوس ماعجزت عن فعله فتحات ضوء الحجرات ولاسيما فيما يخص القراءة. كان بمثابة كلمة السر"أفتح يا سمسم"وانزاحت صخرة الظلام عن الحجرة الثانية. ستة أعمدة متجاورة من الصحف بارتفاع مترين لكل منها موضوعة في الجهة المقابلة لفتحات الضوء، ضمت أعداداً كثيرة من جرائد الجمهورية والقادسية والثورة والتآخي والعراق وبنسبة أقل صحفاً أخرى كالفكر الجديد وطريق الشعب وفتى العراق والحدباء والبعث الرياضي والشعلة الرياضي والراصد، مع ملاحق متعددة ومتنوعة أسبوعية وشهرية. وكان معظمها يحمل في أعلى صفحتها الأولى ختماً بيضوياً مكتوب بداخله"التوجيه السياسي". وبنحو ملاصق كان هنالك عمودان أقل ارتفاعاً من مجلات حراس الوطن وألف باء وكل العرب والطليعة الأدبية وصوت الطلبة وصوت الفلاح ووعي الفلاح والمصور والعربي الكويتية، والصياد والشبكة اللبنانيتين. واحدث هذه المطبوعات كان تاريخ إصدارها في شهر أيار من عام 1985.

وكانت هنالك أيضاً آلاف من الكتب، موضوعة داخل صناديق حديدية وخشبية وكارتونية متنوعة الأشكال والأحجام، صفت الحديدية منها بواقع ثلاثة صناديق لكل عمود بمحاذاة جداري الحجرة الطويلين، وكذلك جدار فتحات الضوء، وكانت بمثابة قاعدة ارتفعت فوقها الصناديق الخشبية ثم الكارتونية.

بدأت بالصحف، لكن وليومين متتاليين لازمني صداع موجع بسبب رائحة الدخان غير المرئي للفانوس ونفاذ الأوكسجين من الموضع داخل حجرتي. فلم استطع تحمل سوى دقائق قليلة من الإنارة ولم تكن كافية لقراءة شيء. وبعد أن تخلصت من السقف الكارتوني للموضع، وعلقت ستارة قديمة لمنع مرور الضوء من الثقوب في الجدار إلى الخارج لدواع أمنية واعتادت رئتاي على الدخان، واجهت مشكلة النعاس مع أسطر القراءة الأولى. فما أن امسك بالجريدة وأنا مضجع حتى أصاب بنوبة تثاؤب واعجز عن فتح عيني. فقمت بتغيير وضعية القراءة جلوساً وجعلت توقيتها في ساعة الإنارة الصباحية فقط، والتفرغ للغناء عبر الراديو لياسمين ليلاً.

سرعان ما تجاوزت تعليمات أمي بشان الأوقات المسموحة بها لإشعال ضوء الفانوس، فدمجت الساعة الليلية بالنهارية، ولأنني لم استخدم مدفأة علاء الدين، أضفت حصتها من النفط الأبيض للفانوس واستعرت ساعتي تشغيلها، فصارت لدي أربع ساعات

كاملة من قراءة الصحف كل نهار داخل الحجرة، تزيد وتنقص بحسب المزاج اليومي.

انتبهت مبكراً، إلى أن صحف الثورة والجمهورية والقادسية والتآخي التي أصبح أسمها لاحقاً العراق وكانت يومية تصدر عن السلطة. تتشابه عناوين صفحاتها الأولى وأخبارها الرئيسة، وكأنها منسوخة عن بعضها، والاختلاف الوحيد بينها كان وضعية الرئيس القائد في صوره التي تحتل في الغالب معظم مساحة النصف الأول من الصفحة الأولى لكل جريدة. لهذا كنت أبدأ بالقراءة من الصفحة الأخيرة، وكانت تحمل بمجملها أخباراً عن نجوم الفن والثقافة، والابتكارات، وطرائف، ومقالات رأي وصوراً مضى على أحدثها أكثر من ست سنوات، لكنها كانت حديثة تماماً بالنسبة لي.

في أسابيع المطالعة الأولى، لم اهتم كثيراً بتضارب الأخبار، كالإعلان عن طلاق أو موت فنان أو رياضي ونفي ذلك في عدد لاحق من ذات الجريدة أو في أخرى. أو تأكيد فريق من الباحثين على فائدة تناول شيء ما، ثم يقول خبر في عدد آخر إن باحثين حذروا من تناوله. كما أنني كنت حسن الظن تجاه كتاب الأعمدة الذين جعلوا حياة العراقيين مستحيلةً بلا صدام، ووضعوا أسمه ثالثاً بعد الله والوطن. فقد كنت أعاني من جوع قرائي ونهم لا يختلف عن نهم الفأر وهو يأكل كل شيء من حولي في

السرداب، وهذه هي العبارة الدقيقة لما كنت عليه في ذلك الوقت. كنت فأر قراءة.

انتقلت بعدها إلى مرحلة القراءة الانتقائية، وتجنب المقالات والأخبار والتحقيقات السياسية المملة التي لا تخرج عن نطاق مدح القائد الضرورة. ليتقلص اهتمامي إلى حد النصف بكل جريدة، وأقل من ذلك في بعض الأعداد، كما أنني لم أكن أقرأ شيئا من أعداد أفردت صفحاتها بالكامل لمناسبة ميلاد السيد الرئيس وملأت بمقالات عن صفاته ومراحل حياته، وشهادات لمعاصريه، وصوره وهو يصفق لأطفال يرقصون وأمامه كعكة الميلاد أو طوابق منها.

وبعد انتهائي من عمودين كاملين من الصحف نقلتهما من الحجرة الثانية إلى حجرتي، اكتشفت متعة البحث في صفحات التسالي عن الكلمة المفقودة، وحل الكلمات المتقاطعة، وإيجاد الفروقات بين صورتين، فعدت للعمودين وصرت اقضي ساعات طوال مدققاً في الصور وأفكر بالكلمات والأحرف المناسبة، ونادراً ما كنت انجح في الوصول إلى حلول كاملة. ولم يكن يهمني هذا في حقيقة الأمر بقدر اهتمامي بشيء ما يشغلني، برفقة تؤنس وحشتي، بشيء أقوم به بنفسي وأضع عليه بصمتي حتى وإن لم يكن ليكتمل.

بعد مرور أربعة أشهر أصبحت منظومتي الثقافية المتشكلة حديثاً مهيأة للانتقال إلى عالم المجلات. فضحكت من قلبي

لإجابات"عزيزي عزوز" الطريفة عن أسئلة المواطنين في مجلة الف باء. وجبت العالم مع مجلة العربي الكويتية في زاوية"استطلاعات"، وشعرت بذكورتي وانأ أقلب صور الفنانات الملونة في مجلتي الشبكة والصياد، وحمدت الله على وجودي في السرداب مع كل مرة انتهيت فيها من قراءة العناوين الدموية في مجلة حراس الوطن.

امتلأت فراغات أيامي بمطالعات نهارية، ورحلات ليلية لاستكشاف ما يجري خارج السرداب بواسطة الراديو. وأحلام يقظة تعوض خسارتي القلبية. وخلال تلك الفترة كانت البلاد منشغلة بلعبة القط والفأر مع فرق التفتيش الدولية عن الأسلحة المحظورة بموجب قرارات مجلس الأمن الدولي. وغير العراق أسمه رسميا من الجمهورية العراقية، إلى جمهورية العراق لأن القيادة اكتشفت فجأةً انه مذكر. ورُسمت الحدود العراقية الكويتية الجديدة بأشراف الأمم المتحدة. وقبل منتصف ذلك العام كانت كردستان قد أصبحت إقليما باعتراف دولي، ورفض عراقي. وأجريت فيها أول انتخابات فاز فيها الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البرزاني. وفي الأول من آب أعدم النظام العراقي 42 تاجراً من بغداد رمياً بالرصاص، واعتقل 550 آخرين، وصودرت البضائع في مخازنهم بتهمة الجشع في محاولة يائسة لكبح جماح الغلاء المتفاقم بفعل العقوبات الدولية. بعدها بيوم واحد فقط وبحلول الذكرى الثانية لاحتلال الكويت، طالبت الصحف العراقية صدام

حسين باستعادتها، وردت الصحف الكويتية بالمطالبة بفرض مزيد من العقوبات الدولية على العراق. وقبل نهاية ذلك الشهر وضعت الأمم المتحدة حظراً على تحليق الطائرات العراقية العسكرية والمدنية فوق محافظات جنوب البلاد. وفي الخامس من تشرين الثاني أحتفل صدام حسين في مدينة الموصل بهزيمة بوش في الانتخابات الأمريكية. بقيت طوال ذلك اليوم متكوراً ومرعوباً في موضعي الذي أعدت إليه غطاء الكرتون. ولم يتوقف الصوت الذي يشبه صوتي لحظة واحدة عن نقل توقعاته لي بصيغ خبرية كالتي كنت أسمعها من إذاعة العراق. وأكثرها رعباً قيام السيد الرئيس القائد"صدام حسين" حفظه الله ورعاه بزيارة مفاجئة لمنزل عائلة الشهيد عميد ركن حرس جمهوري سالم أبو درع.

****

الكتاب. سلاح ثالث بعد الراديو والفانوس. اكتملت به ترسانتي الدفاعية في حرب السرداب. انتقلت به من مرحلة الدفاع إلى هجوم واسع النطاق لانتشالي من المجهول، وتشكيلي سطراً سطر، صفحةً صفحة. (4683) كتاباً في شتى علوم المعرفة وبمختلف الأحجام والألوان والروائح انتفخت بها صناديق خشب وكرتون وحديد. ورثها أبي عن المؤرخ والكاتب الحاج جميل

سامي، باعتباره الابن الوحيد له، ونقلها منتصف العام 1984بشاحنة زيل عسكرية من حي الميدان حيث منزل العائلة إلى بيتنا. وقامت أمي بتهريبها مع صناديق أخرى إلى بيت خالي زياد بعد ساعات من وصول خبر استشهاد أبي لإنقاذها من المصادرة على أيدي رجال الأمن في غاراتهم الخاطفة مستعينةً بأربعة عمال مصريين استأجرتهم من دورة الحماميل في الجانب الأيمن للمدينة مع شاحنتي حمل صغيرتين. وأعادتها إلى المنزل بذات الطريقة في شهر آب عام 1985. ثم نقلتها مجدداً إلى بيت خالي زياد في صباح اليوم الثاني من مجلس عزاء والدي. ولم تسترجعها إلا قبل شهر واحد فقط من دخولي للسرداب، رافضةً نصائح جدتي التي كانت تشعر بعداء تجاه هذه الكتب، ببيعها في شارع النجفي أو إهدائها إلى أحدى مكتبتي الموصل المركزية العامة أو أوقاف نينوى.

لشخص مثلي في ذلك الوقت، لم يكن قد امسك من قبل غير الكتب المنهجية فأن التواجد في غابة كتب كان أمراً مربكاً ومحيراً. فلم أكن أملك خبرة التعرف على الكتاب الذي أريد قراءته، أو في الأقل بأيها أبداً. فصرت أدس أنفي في الصناديق التي أفتحها، أتشمم عناوينها، أضع كتاباً وارفع آخر. أقلب الصفحات، أقرأ أسطراً، أو فقرات، أتردد بين أن استمر أو أفتش عن كتاب جديد. وبعد ثلاثة أيام كاملة، كنت قد أفرغت 14 صندوقاً كرتونياً، وثلاثة خشبية، أختنق بكتبها فراغ الحجرة الثانية وامتلأت

بروائحها باقي الحجرات. وعثرت في نهاية الأمر على أول كتاب قرأته كاملاً في حياتي وكان رواية"شرق المتوسط"لعبد الرحمن منيف. مسحت طبقة الغبار الخفيفة عن غلافه بكم ردائي وبعد اسطر تجريبية قليلة قرأتها وأنا واقف مثل تمثال فوق صناديق الحديد، لجأت إلى موضعي ومعي الفانوس ولم أترك الكتاب إلا بعد انتهيت منه تماماً، وبمعنى أدق انتهى هو من تعذيبي. فقبله كنت قد تعافيت بعض الشيء من جفلة الأصوات المفاجئة، بعيدة كانت أم قريبة. وسيطرتُ نوعاً ما على غريزة الحذر السنجابية. ولكن مع حكاية رجب وحامد في المعتقلات والسجون والتعذيب، والموت من اجل كلمات، عادت إلي مخاوفي ورجع الصوت الذي يشبه صوتي ليوجع رأسي بالكوابيس. "ماذا لو قبضوا عليك الآن، هل عقوبة هارب لشهر أو اثنين، كعقوبة الهارب خمساً وعشرين شهراً. هل سيتنقلون بك بين سبع سجون كما فعلوا مع رجب، ويضيفوا إلى فقرات تعذيبك خلع الأظافر وتحطيم الأصابع بالمطارق وإطفاء السكائر في أنحاء جسدك وأنت عار في غرفة تعذيب داخل سجن بادوش. أو يسحلونك مربوطا بحبل إلى سيارة في شارع باب الطوب، كما حدث في ثورة الشواف سنة 1959 بحسب النسخة الموجودة في ذاكرة جدتك. أم أنهم ملزمون بقرارات ما قبل أم المعارك. يجلسونك على ركبتيك ويداك مربوطتان إلى الخلف وعلى عينيك عُصابة سوداء، تعانق السبابات أزنده البنادق بهدوء. يقول صوت غليظ – أطلق –. فينطفئ العالم".

أصبت سريعاً بشغف القراءة لعبد الرحمن منيف وقضيت اليوم التالي أفتش بين تلال الكتب وفي بطون الصناديق عن عناوين أخرى له، فوجدت روايات حين تركنا الجسر والنهايات وسباق المسافات الطويلة والأشجار واغتيال مرزوق وقصة حب مجوسية. الأخيرة وعلى الرغم من صغر حجمها لكنها تسببت برفع مستويات الحب عندي بدرجة عالية. وليلة الانتهاء من قراءتها بقيت حتى بزوغ الفجر أغني لياسمين والراديو ملتصق بنصف وجهي"فاتت كنبنا" و" عش أنت" و "على الله يا بشيرة" و "مجرد كلام".

الحرب اندلعت مجدداً بين 13 و 22 كانون الثاني سنة 1993، ولكن بلا صفارات إنذار، استهدفت خلالها طائرات أمريكية وبريطانية وفرنسية وصواريخ كروز منشآت نووية عراقية ومواقع عسكرية ومحطات رادار. الإذاعات العربية والعالمية قالت بأنها عقوبة لانتهاكات العراق المتكررة لشروط وقف إطلاق النار. إذاعة العراق عدته استمراراً لأم المعارك. أمي قالت بان صدام حسين كان الهدف وانه نجا بأعجوبة من صاروخ كروز أطلقته غواصة من البحر الأحمر ووصل إلى فندق الرشيد في بغداد بعد خروجه بدقيقة واحدة فقط.

* * * *

القراءة أيضاً تمر بمرحلة مراهقة، أصبت بواحدة من نزواتها في تلك الأيام، وصرت مدمناً على القصص والروايات. فما أن يعجبني كتاب لأحد المؤلفين حتى أنبش الصناديق بحثاً عن أعماله الأخرى. وبعد منيف فتشت عن حنا مينه، ربما لتشابه نبرة السخرية من الحياة في كتابتيهما، أو كانت مجرد صدفة أوقعت المصابيح الزرق بيدي، لأواصل القراءة له في نحو عشرين كتاباً آخر بين رواية ومجاميع قصصية عثرت عليها في الصناديق. وتكرر ذلك مع نجيب محفوظ، ووجباته الأدبية والفكرية الدسمة في سبعة عشر كتاباً بدأتها بأولاد حارتنا. وقضيت مع يوسف إدريس شهراً ونصف الشهر دائراً في فلك قصصه المغناطيسية. ثم انتقلت إلى الأدب الروسي ومؤلفات ديتسويافسكي وليو تولستوي وتورجينيف وإيفان غونجاروف وهوسيرجي إكساكوف وتشيخوف، وانبهرت بإعمال الانكليز تشارل ديكنز و جاين أوستن واجاثا كرستي وجوزيف كونراد وجورج اليوت وأوريول. ومن أمريكا اللاتينية بغابريل غاريسيا ماركيز وماريو بارجاس يوسا وخوسيه بوستاسيو ريفيرا و ريكاردو غويرالديس وغريغوريو لوبيز إي فونتيز، ومن أمريكا الشمالية عشقت حكمة همنغواي ووقاحة فوكنر، وأحلام فرنسيس سكوت فيتزجيرالد . إضافة الى الكثير من الكتب المفردة عربية او مترجمة لروائيين وكتاب قصة، كل بنكهة مختلفة عن الآخر.

البعض منهم كنت قد لمحت أسمائهم أو عناوين كتبهم في الصحف والمجلات المعتقة. وكانت بمجملها تعبيراً عن ذائقة جدي القرائية وانتقلت إلي بالوراثة.

كنت أشعر بنضج داخلي كتاباً بعد أخر، وأدركت بمرور الأيام أن الكتب المنهجية في المدارس والجامعات لا تصنع العقول وإنما تضع الأسس لها. تفتح الأبواب والطرق لكنها لا تملئ الجماجم ولا تؤثثها بالمعرفة كما تفعل الكتب الحرة مثل أحصنة جامحة. ولهذا فان مدارسنا وجامعاتنا لا تخرج سوى ببغاوات، تحكي بلسان واحد ونبرة متشابهة، حقنت بمعلومات تنتهي مهامها مع نهاية الامتحانات، ويفشل الجميع أمام أول اختبار مهني بعيداً عن كراسي الدراسة. ليكتشفوا سوية أنهم ضيعوا أعمارهم في قراءة نظريات يفضح التطبيق العملي عجزها. حدث ذلك معي بعد أربع سنوات دراسة في كلية القانون تخرجت منها بتقدير جيد جدا، دون أن أعرف كيف يترافع المحامون في المحاكم، ماذا يقولون، أين يجلسون. وما الذي يحدد وقوفهم على يمين القاضي أو يساره. كيف يقدمون طلبات الدعاوى، وماذا يكتبون فيها. أين يضعون طوابع المحاماة.

علاقتي بالكتب شابتها أيضاً أوقات برود متقطعة بسبب امتلاء رأسي بالشخوص والأحداث التفصيلية، بعضها كان مثل حلم لا أريد الأفاقة منه أبداً، وأشعر بالخسارة عند الوصول إلى سطرها الأخير وتظل في البال بعدها بساعات أو ربما أسابيع.

وبعضها الآخر كان مثل مسافات غير متناهية، أقطعها غير آبه بما حولي بسبب أسلوب كاتبها الممل، أو سوء ترجمتها. وكنت أعلم بأنني سأعود فيما بعد لقراءة الكتاب إن تركته من يدي في ذلك اليوم لذلك كنت أكمله على مضض كفرض أو واجب سردابي. وكثيراً ما كانت عيناي تقرآن الكلمات لكنها لا توصلها إلى عقلي، وعندما أطبق الكتاب لأخر مرة لا أجد له أثراً يذكر في رأسي.

في الأوقات التي لم أكن أقرأ فيها، كنت أتمشى جيئة وذهاباً خارج الحجرات أو العب مع نفسي الـ" داما "* أو" الريز"*، مستخدماً أقراص التين المجفف وبلا هزائم تقريبا. أو أتسلى بالبحث عن حافظات بيض الصراصير التي تشبه كبسولات الدواء واضعها داخل زجاجة معجون طماطم فارغة، تحديداً لنسل الصراصير في السرداب. وأعطل الفخاخ وأجمع حبات القمح المسمومة التي تكمن بها والدتي للفئران، تجنباً لمصادفة أي منها وهي جيفة منخورة العيون. وأتابع في الزوايا حفلات التهام العناكب لفرائسها وهي ملفوفة بقماط خيوطها. كنت أجلس لساعات في زاويتي خارج الحجرة، أستعيد تفاصيل ملامح أخواتي والناس الآخرين الذين عرفتهم في حياتي. أحاول تذكر نبرات أصواتهم. أسرح مع حكايات يقحمني بها الخيال، أذهب بعيداً عن السرداب، أصبح جزءاً من عوالم أخرى، وأنتبه أحيانا إلى أنني

أكلم نفسي، أو أضحك معها. فانتزعني على الفور من دائرة الجنون وأعود للتفتيش عن شيء أخر غيري، يشغلني.

****

ارتفعت حصتي الأسبوعية من النفط الأبيض إلى عشرين لتراً منتصف سنة 1993، لوجود فائض منزلي بسبب انتفاء الحاجة إلى استخدام المدافئ وسخان الحمام لارتفاع درجات الحرارة. وكذلك تثميناً من أمي لموافقتي على حلق لحيتي، وتقصير شعر رأسي. فقد كانت تعتقد بأنني أشبه الكفار في فلم الرسالة وتحولت بقذارتي إلى بيت للقمل. وقامت يوم رضخت لمقصها بجمع شعري المقصوص في كيس أسود وأحرقته في برميل النفايات خارج المنزل. وعلمت في اعتراف لاحق لها، أنها وضعت مزقة منه في خلطة سحرية مجربة لشيخ مرفوع عنه الحجاب، احتوت على شظية من عظمة ساق ديك رومي ومسك وزعفران وخنفساء سوداء متيبسة، وصورة صغيرة بالأبيض والأسود تظهرني بثياب مركز التدريب العسكرية. أحرقتها جميعاً في وعاء فخاري وقذفت حفنات صغيرة من رمادها في الهواء ذات ليلة مقمرة من أجل حجب منزلنا عن أعين رجال الأمن والرفاق الحزبيين. وأقسمت برؤوسنا أنا وأخواتي أن بيتنا صار غير مرئيٍ

بعدها لرجال الحكومة، وحتى موظفو جباية المياه والكهرباء، لم يعودوا يطرقون بابنا كما كانوا يفعلون كل ثلاثة أشهر وأن جدتي تولت زيارة الدائرتين وتسديد المبالغ المطلوبة بذمتنا بعد أن تستلم راتبها التقاعدي.

القراءة فتحت لي باباً جديداً للتواصل حلمياً مع ياسمين، تحقق لي ذلك عندما اكتشفت ستة عشر ديواناً شعرياً صغيراً لنزار قباني في أحدى صناديق الخشب، وأذكر أنني سحبت أول مرة ديوان" 100 رسالة حب"وأخذت أقرأ وقلبي يدق بعشق، تماماً كما كان يحدث لي عندما أدخل نطاق جاذبية ياسمين في الكلية. قضيت أياماً كثيرة بعدها، وأنا أقرأ لها منتخبات من دواوين نزار على أنها أشعاري، حاذفاً منها الأرداف والنهود والحلمات والقبلات، ليصلها حبي العذري صافياً ونظيفاً مثل ماء نبع.

العريف أمانج كان شاعراً ملهماً. قرأ لي ذات مساء ونحن جالسين بالقرب من حانوت المعسكر أبيات شوق كتبها لحبيبته. كان يمط الكلمات ويحرك يديه بتناغم كأنه يعزف، ويدقق بين الحين والآخر في وجهي ليرى فيه تأثير كلماته. قال لي يومها بان المظلومون أمثالنا قلوبهم كبيرة وشعراء بالفطرة، ويمتلكون قابلية الوقوع في الحب أسرع من غيرهم، ويظلون أوفياء لمن يحبون مهما حدث أو طال الزمان. وهذا ما شجعني ليلتها لكتابة أول رسالة اعتراف تحريرية لياسمين. كتبتها على ظهر قصاصة ورقة مسودة التعداد اليومي للفصيل الخامس، وقرأتها لأمانج كاملةً

وبلا تأتأة في اليوم التالي بعد التدريب الصباحي : " بألم ممزوج بسعادة ما، أسلم عليك من بعيد. سعادة أنك ستظلين قمرا ينير لي ليلي، وتظلين حبيبتي أينما رست سفني. وألم أنني لم استطع أن أقول لك ما في صدري، وأن طرقنا في الحياة قد لا تلتقي أبداً. لا تهتمي بشأني، عيشي ملاكي الجميلة حياتك بكل تفاصيلها، وستهفو روحي إليك دائماً، لتتمنى لك كل الخير والسعادة والهناء. أحبك بعمق يا حياتي ".

****

خارج السرداب كان الاقتصاد العراقي مثل طائرة في السماء بلا طيار، هبوط وارتفاع، وكان السقوط حتمياً لرفض المجتمع الدولي مسامحة العراق على حماقة غزو الكويت. عمليات الإنعاش الحكومية كانت غير مجدية، وقرار تبديل العملة الورقية القديمة المطبوعة في سويسراً بأخرى تحمل صورة القائد بطباعة سيئة وسهلة التزوير وأغرقت بها الأسواق من أغبى قرارات النظام، لأنه أدى إلى تفاقم نسبة التضخم ورفع قيمة الدولار الأمريكي مقابل الدينار العراقي بمقدار 500 في المئة خلال فترة وجيزة وصار الناس يشترون برزم كبيرة من النقود أشياء بسيطة. نتيجةً لذلك ارتفعت معدلات الفقر وتفشت السرقة، ليقرر مجلس قيادة

الثورة تطبيق الشريعة الإسلامية على اللصوص بقطع يد السارق، عدلها لاحقاً بعقوبة الإعدام .

حتى بيتنا الذي كان صامداً أمام العقوبات الدولية، تعطلت مصادر دخله وأصيبت موازنته بالعجز. وفتح خليل البقال في نيسان سنة 1994 أول صفحة لنا في سجل ديونه حملت أسم جدتي الحاجة أم سالم.

كانت أمي شبه منهارة وهي تشكو لي ذات جمعة رفض مستأجر البيت الذي ورثته عن أمها في حي الزهور، رفع مبلغ بدل الإيجار الذي لم يعد يساوي شيئاً وأخذ يسدده عند كاتب عدل الموصل. وان السماء التي لم تعد تمطر، تسببت بإصابة أرض جدتي بالقحط وراتبها التقاعدي الذي تستلمه متراكما كل ثلاثة أشهر لا يكفي لشراء كيلو غرام واحد من اللحم. وسيارة الكرونا انتهى عمر محركها وبليت إطاراتها واستلزم إعادتها مع خالي زياد إلى الشارع ثروة من المال.

في الجمعة التالية، كانت أمي قد توصلت إلى قرارات مصيرية للتخفيف من الحصار، فجلبت ستة عمال مع مطارق كبيرة كسروا بها كونكريت الملجأ في الحديقة الخلفية، واستخرجوا منه أربعة أطنان من حديد التسليح أشتراها تاجر خردوات. كما أنها استعادت حقيبة يد كانت مؤمنة لدى زوجة خالي زياد فيها أربعة أنواط شجاعة، وستة نجوم كتف ذهب عيار 21، وثلاثة ساعات يدوية نوع لونجين مطلية بالذهب عيار 24 وعليها صورة صدام

حسين، ومسبحة كهرب أصلية، ونظارتي رايبان مطليتين بالذهب عيار 18، ودرزينة كاملة من أقلام حبر باركر وشيفر في علبها. باعتها مع مصوغاتها الذهبية قطعة بعد أخرى في سوقي الصياغ وهرج، مغطية وجهها بالخمار، لكي لا يشعر أبي بالعار وهو في قبره.

****

عادت أجواء الرعب إلى السرداب يوم الخميس 25 آب 1994، عندما التقطت أذناي وبوضوح تام صوت المذيعة وهي تتلو عبر محطة العراق الإذاعية قرار مجلس قيادة الثورة رقم"115"القاضي بقطع صيوان الأذن لكل من تخلف عن الالتحاق بالخدمة العسكرية لأيام معدودة أو هرب من تأديتها أو آوى أياً منهما أو تستر عليه. وان توشم جبهة من قطع صيوان أذنه بخط أفقي مستقيم بطول لا يقل عن ثلاثة سنتيمترات ولا يقل عن خمسة، وبعرض مليمتر واحد، وأن يعاقب بالإعدام رمياً بالرصاص من هرب من الخدمة العسكرية ثلاث مرات، أو تخلف عن الخدمة العسكرية ثمّ هرب مرتين أو آوى أو تستر ثلاث مرات على متخلف أو هارب من الخدمة العسكرية.

ارتفعت حرارتي في تلك الليلة، وبقيت في موضعي حتى ظهيرة اليوم التالي بلا فانوس وبلا راديو. والصوت الذي يشبه صوتي يسخر مني ويعيد تشكيل مشاهد إعدامي أمام باب المنزل وأنا بلا أذنين، مع جبهة مشققة. وذكرني بالرفيق فوزي أيام الكلية وهو يداعب صيوان أذني اليمنى، ليثبت لي شكوكي القديمة بأنني ملاحق.

نظرت أمي إلى القرار من زاوية أمومتها، قالت وهي تضع لي الكمادات ورأسي في حجرها:

- هذا يعني أنك ستعود ألينا قريباً، فللمرة الأولى يصدر عن صدام قرار فيه مرونة، ولا يكون الموت هو الجزاء الأوحد.

كانت تراقبني وأنا أتحسس أذني اليسرى. قالت مازحة:

- سيقطعون آذاننا جميعاً، ويفتحون في جبهاتنا خطوطاً لأننا خبأناك وتسترنا عليك، سأقترح عليهم أن يستثنوا جدتك، ويقطعوا لها لسانها بدلاً من أذنها.

ضحكت أنا، وبكت هيّ. لا فاصل بين ابتسامة أمي ودمعتها. ذكرت وهي تعصر في وعاء بلاستيكي أخضر قطعة القماش ثم فرشت برودته على جبهتي :

- كنت أفكر بالاعتراف لأخواتك بوجودك تحتنا، فقد اشتقن إليك كثيراً، ويغرقن في البكاء في كل مرة أقرأ لهن الرسائل التي اكتبها بدلاً عنك. سعاد تراك حزيناً باستمرار في أحلامها، وإسراء رسمت لك صورة بالألون وأنت برداء المحاماة.

رفعتُ الكمادة ونهضتُ ملتفتاً إليها:

– أعتدت حياة السرداب أمي ولن أخرج منه قبل رحيل صدام.

****

أعلنت أمي الحرب على مستأجر بيتها وأقامت ثلاث دعاوى إخلاء ضده أمام محكمة البداءة، خسرت اثنتين منها بسبب دهاء محاميه. وكسبت الثالثة في شهر آب عام 1995 لنسيانه إيداع مبلغ إيجار شهر واحد فقط وحصل محامينا على إثبات بذلك من كاتب العدل حسم به القضية. ووقفت بشراسة مدافعة عن حق أختي سندس في حضانة ابنتيها بوجه طليقها الذي دفعته أبوته المتأخرة إلى رفع دعوى أمام محكمة الأحوال الشخصية ليأخذهما وخسرها لوقوف القانون في صف أختي. ومع نهاية ذلك العام أستعاد منزلنا بفضل قيادة أمي الحكيمة أنفته وشيئاً من ثراءه القديمين. وخف عنه ضباب العنوسة قليلاً بزواج أختي الوسطى"نسمة" من تاجر مواد غذائية في سوق البورصة، وقيام خاطبة عجوز بزيارتين استكشافيتين حامت فيهما حول أختي"شمس". ليرتفع سقف الأمل عند أمي مرة أخرى باقتراب موعد إعلان عودتي للحياة مجدداً.

الإذاعات انشغلت بالحديث عن هروب زوجي ابنتي صدام، "حسين كامل" وزير الصناعة، وشقيقه"صدام كامل" ولجوئهما إلى الأردن برفقة زوجتيهما مع مبالغ مالية طائلة والكثير من الأسرار. وتشكيل قوات جديدة تحمل أسم فدائيي صدام. وتفاصيل حرب السلطة المندلعة في كردستان بين مقاتلي الحزب الديمقراطي، والاتحاد الوطني الكرديين. ورفض مجلس الأمن تعليق العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق، بذريعة عدم التزامه الكامل بالقرارات. ومفاوضات بشان التوصل إلى قرار أممي لتصدير النفط مقابل الحصول على الغذاء، وترشيح صدام حسين لرئاسة جمهورية العراق سبع سنوات قابلة للتجديد.

وفي ليلة قارصة البرودة قبل نهاية تلك السنة، كنت شبه خروف مع كل ذلك الصوف الذي أرتديه، وفوقي ثلاث بطانيات. جرني النوم إلى بركة ماء محاطة بالأشجار، كنت أقف عارياً وسطها والماء بحدود سرتي، وأمامي على بعد خطوات قليلة فتاة عارية ومنهمر شعرها الأسود الفاحم على كتفيها ويسطع بياض ظهرها منعكساً على صفحة الماء بيننا. خفت أن تكون ياسمين، حاولت أن التفت وأهرب بعيداً لكنني كنت منحوتا، مغروساً في أرض البركة، لا يتحرك مني سوى جفناي. خطت بهدوء إلى الوراء، نحوي مباشرةً، أزداد خفقان قلبي وهي تلامسني بمؤخرتها، وتقف بكعبي قدميها على مشطي قدمي، ثم ألصقت سخونة

ظهرها ببطني، وأراحت رأسها على وجهي، وصرت اشهق وأزفر بسرعة ونار تشتعل بضراوة في أنحاء جسدي.

كنت ما أزال أشهق وأزفر كما في الحلم عندما أفقت وراحة من نوع خاص تلفني. أحسست بلزوجة ودفء السائل تحت سروالي الداخلي. وما كانت بي حاجة لأن أتحسس بأصابعي لاستجلاء الأمر، فقد كانت تلك أول حالة احتلام طبيعية تحدث لي في السرداب والثانية من نوعها في حياتي، بعد أن داهمتني ذات ليلة في زمن الحرية وأنا منبطح على بطني نائما بجوار أمي.

أعادني ذلك الحدث نحو مسار المراهقة ودفعني إليه بقوة، فأدمنت العادة السرية. ركّبتُ وجوهاً جميلة لا حصر لها على رأس فتاة البركة في المشاهد التي أخرجها دماغي وقذفت متأثرا بتفاصيل جسدها عشرات المرات في مغسلة الحمام والمرحاض. أو بين صفحات مجلة حراس الوطن والمصور والشبكة والصياد وأنا مستلق على ظهري في فراشي. مناضلاً في ملحمة الإدمان تلك تجنب حتى لمحة ظهور واحدة لياسمين، فقد كنت أشعر في قرارة نفسي بأنني أخونها وبفعلي الدنيء ذاك لم أستحق حبها. فتوقفت عن الغناء لها وإلقاء القصائد في حضرة طيفها. حتى أبي أمتنع عن زيارتي وكنت أحس بنظرة عتاب في وجه أمي وهي تقول كل جمعة العبارة ذاتها :

- لقد تغيرت كثيراً".

****

في الساعة الواحدة وثمانية عشر دقيقة من ظهر يوم الأربعاء 11 كانون الثاني 1996، بلغت السن التي تؤهلني للحصول على لقب سجين بموجب القانون العراقي. متجاوزاً خمس سنوات من الحبس بين ظلام ونور ووحدة وخوف. وآمال توقفت عن تحقيقها حتى في الأحلام. كنت يومها مصاباً بزكام زرعني أسبوعا كاملاً في الفراش. كتمت خلالها عطساتي بدفن وجهي في البطانيات ومحاولاً إيقاف جريان الرشح من انفي بجرعات بيبون منقوع بمياه الحب. لا أذكر عبر أية إذاعة سمعت المذيع يقرأ أحداثاً وقعت في مثل ذلك اليوم، فتذكرت أنها سنة غيبتي الخامسة تمر. شعرت لحظتها بوجع في الرأس والبطن. ووحدة هائلة حاصرتني وبدأت تخنقني. الصوت الذي يشبه صوتي أعاد إلى أسماعي مزاعمه بأنني كائن غير مرغوب به. شيء زاد عن الحاجة والقي في السرداب، مثل الملابس والأحذية والأدوات المنزلية القديمة. تخلصت من ثقل البطانيات فوقي ومن تراكم الثياب على جسمي. خرجت إلى الممر أترنح من الدوار، صعدت الدرجات مستنداً بكتفي الأيسر على الجدار. توقفت أمام الباب، رفعت قبضة يدي اليمنى فوق رأسي، أرجعتها للخلف لكي أطرق بها. ترددتُ، أنزلت يدي، ثم عدت لأرفعها. تذكرت فوهات البنادق والشوارب الغليظة

والبساطيل والقبعات الحمر والموت المنتظر بعد الباب وصورة صدام. جثوت على ركبتي وجبهتي ملتصقة بالباب وبكيت بحرقة لكن بصوت مخنوق، فالسجناء في حالتي تلك لم يكن لديهم الحق في البكاء.

****

تأكدنا أنا وأمي بان أمر ظهوري العلني مستحيل في ظل بقاء صدام حسين في السلطة، لأنه أمر بقتل أقرباء له، هما زوجا ابنتيه، والدا أحفاده، فكيف بنكرة مثلي لا احد في العالم يتذكر حتى شكله. استمعنا سوية عبر إذاعة صوت العراق الحر ونحن جالسين ملتصقين في حجرتي إلى تفاصيل كاملة عن مقتل حسين كامل وعدد من أفراد عائلته داخل منزله في منطقة السيدية ببغداد. مجزرة نفذها أقرباءٌ للرئيس بأوامر مباشرة منه بعد ثلاثة أيام فقط من وصول حسين كامل إلى العراق بناء على عفو رئاسي. وبدلاً من أن يستعيد مكانته السابقة أو حتى تجاهلاً رحيماً، أجبر هو وأخوه على تطليق زوجتيهما في المحكمة، واخذوا أولادهما منهما، وشاهد بعينيه مقتل إخوته ووالده وأطفالاً ونساءً من أقربائه، قبل أن تمزقه ثلاثون أطلاقة كلاشينكوف إلى أشلاء ديست بالأحذية احتفالاً بغسل عار هروبه ومخالفته أوامر القيادة.

الشيعة في الراديو عدوا مقتل حسين كامل المروع، كرامةً من آل البيت، لأنه قتل الكثيرين من الأبرياء عقاباً على الانتفاضة الشعبانية في سنة 1991 ووقف في كربلاء أمام ضريح الأمام الحسين وقال له أمام حشد من الناس"أنا حسين وأنت حسين" في إشارة إلى تحديه. خطيب الجمعة في الجامع القريب من منزلنا، عد الحادثة نهايةً حتمية للطغيان وأستشهد بقصة غرق فرعون وانخساف الأرض بقارون ودعا في نهاية الخطبة وهو يصرخ"اللهم أضرب الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بين أيديهم سالمين". أنا وأمي اتفقنا على أنها رسالة ربانية لنا، لكي نحافظ على مستوى عال من الحيطة والحذر حتى لو استلزم ذلك سنوات أخرى أعيشها في السرداب منفصلاً عن العالم.

****

تغير مزاج أدماني القرائي نحو كتب التأريخ والتعريف بالحضارات التي نشأت في بلاد ما بين النهرين قبل أن يؤسس الانكليز العراق وما تلا ذلك. ورحلات المستكشفين وشهاداتهم وسير الشخصيات وإنجازاتهم. 892 كتاباً بين صغير ومجلد كبير جمعتها في حجرتي. حملت جميعها تقريباً في صفحتها الأولى

فوق العنوان الداخلي تاريخ بدء جدي وانتهاءه من قراءة الكتاب، وتوقيعه وامتلأت حواشي الصفحات بين دفتيها بعلامات استفهام وتعجب وملاحظاته وتصحيحاته المعرفية والإملائية وكلها بقلم الرصاص. لكنني لم أجد أي مؤلف له ولا حتى ورقة تؤيد وصف الناس وجدتي له بأنه مؤرخ.

قراءتي لتلك الكتب لم تكن من أجل المتعة وتبديد زمن الفراغ وإنما لتعلم أشياء كنت اجهلها عن تاريخ الأرض التي أعيش تحتها. لأفهم السر وراء كل ذلك الموت الذي يسكن وطني دوناً عن أوطان العالم. احتلالات انتهت باحتلالات، وثارات أعقبتها ثارات، وممالك سقطت ومحيت من التاريخ بنهوض أخرى فوق أنقاضها بأسماء وعناوين وتواريخ جديدة وأغلب سير حكامه انتهت بقتل وحشي وتولي القاتل في كل مرة مهام الحكم بدلاً عن المقتول.

تبادلنا الأدوار أنا وجدتي خلال زياراتها القليلة لي في السرداب، لمرض الم بأمي أو طارئ أشغلها عني. حكيت لها قصصاً كثيرة عن الوطن، كنت اهمس قارئاً لها مقتطفات من كتاب والفانوس بيننا، فتصغي وتهز رأسها وأحيانا تقاطعني وتكمل هي بعض الأحداث. تبتسم كاشفةً عن لمعة أسنانها الأربع الذهبية متذكرةً جدي الحاج جميل. الذي كان يلقنها التاريخ بقراءات مستمرة دوخها بها لعقود.

قالت لي في أحدى المرات بعد انتهائي من سرد تفاصيل عن حياة الملك غازي.

– جدك كتب عن لقاءه بغازي بالقرب من بيتنا في الميدان قبل أن يصبح ملكا بأسبوع واحد فقط، قال بأنه كان شاباً لطيفاً، والناس تهتف من حوله"يسقط الاستعمار، يسقط البريطانيون ". كان يرى مستقبلاً مشرقاً للعراق بوجوده.

نظرت جدتي إلى أعمدة الكتب وظلالها المرسومة على جدران الحجرة :

– لم ينتم جدك إلى أي حزب ولم يخرج يوماً في تظاهرة وعندما قامت الثورة في تموز 1958، ترك عمله معلماً للتاريخ ولازم غرفته أسابيع طويلة. كان يقول بان الناس سيقتلون بلا ذنب أو سبب وستمتلئ الشوارع بالجثث.

أخذت الكتاب من يدي. مررت أصابعها على توقيع جدي كأنها تصافحه آو تربت على رأسه، ثم قالت بحزن:

– تفرغ للكتابة عشر سنوات كاملة لحماية التاريخ من التزوير. وتشاجر مع أبيك الذي كان ضابطاً صغيراً مرات عدة لأنه رفض ترك الجيش وبعد قيام ثورة تموز 1968 فقد أعصابه، وأخذ معه جميع ما كتب في دفاتر وآلاف من الأوراق إلى سطح المنزل. سكب فوقها النفط الأبيض من علبة صفيح، ثم أضرم فيها النار وهو يصرخ: "العراق يحترق".

****

في شهر آذار من تلك السنة أبدِل قرار قطع صيوان الأذن ووشم الجبين بكفالة مالية مقدارها 500 ألف دينار يدفعها الهارب أو المتخلف عن الخدمة العسكرية مع إكمال تأديتها. أمي تملصت من اتفاقيات الحذر المبرمة بيننا وأصرت على دفع المبلغ من مدخراتها المنتعشة. وظلت تلاحقني لقبول إعلان ظهوري وتولي الأمور فوق لأنني رجل البيت. تذرعت بخوفي من فقدان أخواتي إلى الأبد إن علمن بطريقة أو بأخرى أنني كنت تحتهن طوال تلك السنين ولم أكن في أوربا كما يعرفن. فقالت بأنها أكثر حرصاً مني على ذلك وأنها تمزق الرسائل الشهرية التي تكتبها نيابةً عني بعد قراءتها وهي على مسافة آمنة منهن لكي لا يلتقطن الفارق بين خطينا وتحرق القصاصات في علبة صفيح أو تسحب حبل السيفون لتغرقها في المرحاض. تحدثت بحماسة كبيرة عن خططها في ترتيب إجراءات استقبال عائلية لي وأنا بقيافة أوربي ومعي حقيبة متخمة بالهدايا. وبعد أن فشلت مفاوضاتنا في إيجاد حل نهائي عقدنا مطلع شهر نيسان اتفاقا جديداً يقضي بالتريث مدة شهرين للتأكد من جدية القرار وانه ليس مصيدة للإيقاع بي. ثم قمت بتمديد المدة ثلاثة أشهر أخرى بعد أن

عجزت أمي عن العثور على أي جندي هارب أو متخلف أختبر مصداقية النظام وقرر العودة مضحياً بأذنيه وجبهته أو ربما حياته.

وظهيرة آخر يوم من آب هبطت أمي إلى السرداب وكرشها يهتز من الفرح، وضعت يدها على المصحف المعلق بالحائط وأقسمت بأنها التقت اثنين من الجنود الهاربين المستفيدين من العفو الجديد كانا يودعان مبالغ الكفالة في حساب وزارة الدفاع لدى مصرف الرافدين. هدأتها بجولة استماع إلى الراديو وأطلعتها على أخبار الحرب الدائرة في كردستان. ومحاولة الاغتيال الفاشلة التي تعرض لها صدام والقصف الإيراني لمناطق حدودية والتوغل التركي عبر أخرى. والتهديدات الأمريكية بهجمات جديدة. حاولت أقناعها بان احتمالات استشهادي ستكون كبيرة لو عدت للجيش في الوقت الراهن وأن علينا الانتظار حتى يقول العراق وبنحو جدي وداعاً للسلاح. لكنها قامت بإجراء أمومي متهور وعقدت اجتماعاً عائلياً بعد أن أرسلت في طلب أختي سناء وزوجها مع خالي زياد وقرأت أمامهم رسالة مفترضة مني، تضمنت رغبتي الشديدة في العودة مجدداً إلى أرض الوطن للاستفادة من مكرمة السيد الرئيس القائد وأنني طوال السنوات الفائتة كنت أرفع رأسي إلى السماء وأدعو أن يتحقق حلم عودتي، وها أنا ذا بانتظار موعد إقلاع طائرتي من روما إلى عمان خلال أيام ومن هناك انطلق مباشرةً إلى البيت عبر الطريق البري. وزعت أمي الحلوى

واستقبلت بالأحضان باكية المهنئين. وبعد أن سلمت أسماعهم لواحدة من حكايات الزمن الجميل بصوت جدتي، هرعت مسرعةً لتضعني أمام الأمر الواقع، وبدلاً عن ذلك استقبلتها بأغاني إذاعة العراق الحربية وبخبر إذاعة مونتكارلو بشأن دخول قوات الجيش العراقي إلى أربيل وتأهب قوات الجيش الأمريكي في الخليج لتوجيه ضربة عسكرية. وبعد ثلاثة أيام علمت أمي من التلفزيون بإنباء وصول أول دفعة من صواريخ كروز مستهدفةً عدداً من المواقع في عموم العراق. فعقدت مرغمةً اجتماعاً عائلياً آخر، قرأت فيه بطقوس جنائزية رسالتي المفترضة الثانية وكانت مقتضبة جداً عبرت فيها عن أسفي لخيبة الأمل الكبيرة التي ستصاب بها العائلة بسبب عدولي عن قرار العودة.

****

ظل الشعور بتأنيب الضمير ملازماً لأمي وأنا أكبر أمامها في السرداب جمعةً بعد أخرى. وظلت لسنتين كاملتين تغريني بالعالم الخارجي. تبالغ في تجميله. تؤثثه بعشرات من الأكاذيب بحثاً عن مفتاح مخفي في رأسي تفتح به باب خروجي للحرية لكنها لم تجده. حاولت بكل ما تعرفه من حيل الأمهات فصلي عن لعبة حياتي. استعادتني من الجب الذي ألقتني فيه. لكن ثائر

الذي نما سنوات خارج قحف أمومتها، التصق حد الالتحام بسجنه وصار جزءاً من جدرانه وعزلته وظلامه.

هددتني بالسماء لإنهاء تمردي على سلطتها. أخرجت المصحف من كيسه مرات عدة، وجلست تقرأ على الأرض مقابلةً الجدار أسفل الدرجات، تميل مثل مهد إلى أمام وخلف ويرتفع صوتها عندما تصل إلى آيات بر الوالدين والاحتراق في جهنم. وعندما توقفتُ عن الكلام زيادةً في عنادي، جاءت بدلو مملوء بملح مذاب في ماء ورد، رشت به أرضية الممر والحجرات والحمام، مرددةً جملاً فيها شياطين وجن وعفاريت.

"السرداب انتصر" قلتُ وأنا محشور في زاويتي خارج الحجرات وفي حضني كتاب أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. فاجأها صوتي بعد صمت أسابيع، اعتقدت بان مفعول السحر زال عني قبل أن يجف ماء إبطاله في السرداب. اقتربت مني والدموع تكسو وجهها. وواصلتُ:

– ظننت بان اعتيادي على العيش بين هذه الجدران ونجاتي من الحرب والإعدام يعني انتصاراً لي ولك، لكننا في الحقيقة هزمنا.

لم ترد بشيء، بقي بصرها معلقاً بالحائط فوقي. وجو من الحزن يطوقنا.

– أنا عالق هنا أمي، وإن كان خروجي في السابق مرتبطاً بسقوط صدام، فأنه الآن يستلزم سقوط السرداب أيضاً.

أحطتها بذراعي لأستعيدها من شرودها، قلت لها هامساً بود :

– كان أمر دخولي للسرداب بقرار منك، فأرجو أن تتركي لي قرار الخروج منه.

---

*الداما والريز: لعبتان شعبيتان كانتا منتشرتين على نطاق واسع في العراق خلال عقد الثمانينيات.

الطوفان

تجددت الحرب في السابع عشر من كانون الأول 1998. نفذت طائرات أمريكية وبريطانية على مدى ثلاثة أيام هجمات على 97 موقعاً في وسط وجنوب العراق ضمن عملية أطلق

عليها الرئيس الأمريكية بيل كلنتون اسم ثعلب الصحراء لإرغام العراق على التعاون مع فرق التفتيش الدولية عن الأسلحة المحرمة بعد سنتين من التوتر والتهديد والوعيد من مختلف الأطراف.

لم أبال بالأخبار والتحليلات والتوقعات هذه المرة. أبقيت السرداب في حالة من التعتيم، لأحافظ على السلم والحياد المتحققين فيه. كانت إستراتيجية جديدة اتبعتها لتقليص مخاوفي، مستفيداً من عشرات الحروب التي قرأت عنها في كتب جدي بانتصاراتها وانكساراتها. وهامشه المكتوب بقلم الرصاص في أكثر من كتاب ماثل في ذهني: " طرفا الحرب خاسران وإن أعتقد احدهما انه منتصر".

نقلت مئات من كتب الدين والفلسفة والاجتماع والطب والفنون إلى حجرتي بعد أن أفرغتها من صناديقها فتشكلت مع كتب التاريخ والأدب جدراناً متجاورة أرتفع اثنان منها إلى حدود السقف. وفي عصر آخر يوم من تلك السنة اكتشفت كنز جدي العظيم. وكان عبارة عن مخطوطات قديمة ونادرة داخل آخر صندوق حديدي ضمن الصف الأرضي. وكان بخلاف الصناديق الأخرى مبطناً من الداخل بجلد رمادي اللون. سحبته بهدوء وحذر إلى وكري. أغلقت باب الحجرة ووضعت الفانوس فوق مدفأة علاء الدين المتقاعدة وبقيت ساعات استنشق عطر السنين من ثمانية عشر مخطوطة. أغلفة البعض منها من جلد حيواني وأوراقها

الصفر تكاد تتكسر بمجرد لمسها موضوعة داخل كيسين كبيرين من القماش السميك. بينها كتاب الإسراء والمعراج مكتوب بخط فنان محترف، حملت صفحته الأولى ختماً بلونين أحمر وازرق على شكل نهر متعرج مؤرخ في عام 779 هجري، دون ذكر لأسم الناسخ، مع مصحف قرآني ملفوف بقطعة قماش تفتت زاوية ورقة منه بمجرد لمسي لها. وكتاب رياض الصالحين ليحيى النووي حمل تاريخ 854 هجري. وشرح ديوان المتنبي لأبو الحسن الواحدي مؤرخ في 1090 هجري. وشمس المعارف الكبرى، لأحمد بن علي البوني، وكتيب شجرة الكون، وما يقرب من نصف كتاب فتوحات مكية لمحي الدين بن عربي، بدون أغلفة، والثلاثة لم أجد عليها تواريخاً، لكنها شابهت الأخريات وربما كانت أقدم. وكان بينها كذلك قطع جلدية مختلفة الأحجام، مكتوبة عليها آيات قرآنية، وواحدة منها فقط رسمت عليها زخارف أسلامية بألوان عدة.

****

أيقظني انهيار جدار من كتب الدين، سقطت بعضٌ من كتبه فوقي وأنا مدفون تحت البطانيات. كانت رائحة المخطوطات تملأ الحجرة طاغية على روائح آلاف من الكتب الأخرى وشيء من

الصباح يتسلل إلى داخل الحجرة منفلتاً من ستارة الفتحات. تناهى إلى سمعي صوت قط صغير تحول بمرور الوقت إلى ما يشبه بكاء طفل رضيع. اعتقدت بادئ الأمر أن الصوت قادم من حديقة البيت الخلفية التي تحولت بسبب الإهمال المتعمد إلى أحراش ومملكةً للقطط السائبة. ولكن عندما خرجت من الحجرات وأنا ملفوف بإحدى البطانيات وجدته داخل إطار نافذة السرداب الثانية يموء مرتعباً. لم أعرف أية قوة شيطانية أبعدت حشوة من كيس قماش الجنفاص كنت قد أغلقت بها كسر النافذة قبل أيام فقط ليقتحم ذلك الكائن الصغير سردابي بمهرجان صراخه. شعرت بالغضب الممزوج بالقلق الأمني وأنا أصعد فوق هيكل مبردة الماء التي سحبتها إلى هناك لمعالجة الخرق. كان هريراً بحجم الكف، معظمه أبيض مع سواد يغطي رأسه وينفتح مثل ستارة كاشفاً عن بياض وجهه. وعلى ظهره جزيرة سواد مائلة نحو شقه الأيسر.

قربت يدي منه فانكمش دافعاً أذنيه إلى الخلف وهو يرتجف والمواء يصدر من جوفه. مررت سبابتي على رأسه ونزلت بها على ظهره وذيله. وبعد أن تجاوز صدمة ظهوري ولمسي له تراجع إلى الخلف داخلاً في نوبة مواء هستيرية جعلتني أقبض على جلد رقبته وأدفعه إلى الخارج عبر كسر النافذة وشق الشبكة المعدنية. أحكمت سد الفتحة بانتفاخةِ الجنفاص وعدت بهدوء الفاتحين إلى دفء الفراش. تقلبت فيه محاولاً الإمساك بإغفاءة صباحية، لكن وجه القط ظل يلازمني وألفة ما اعترتني حياله

ودفعتني في نهاية الأمر إلى العودة وسحب حشوة الجنفاص الى الداخل قليلاً مبقياً شيئاً يسيراً منها في الفتحة. وجلبت سجادة قديمة من الحجرة الأولى وضعتها مطويةً على الأرض أسفل النافذة، كأجراء احتياطي للتخفيف من أي سقطة محتملة، متواطئاً مع أقتحامةٍ جديدة للقط تبدد عزلتي.

* * * *

أفرجت السماء خلال الأسبوع الأول من عام 1999 عن أمطار غزيرة لم تكن الموصل قد شهدت مثلها منذ سنوات. توقفت نهار السبت وعادت لتنهمر يومين متتاليين. وعند ظهيرة يوم الثلاثاء بدأ طوفان السرداب.

كنت مندمجاً في حجرتي مع حيران بن الأضعف وسعيه لاكتشاف الحقيقة في كتاب قصة الإيمان لنديم الجسر عندما سمعت صوتاً يشبه الخرير ظننت بادئ الأمر أن مصدره الحمام، فتقاعست عن النهوض مؤجلاً ذلك إلى جولة تبول مقبلة. وبعد نصف ساعة خرجت لأمط جسمي في الممر ففوجئت بأرضيته المبلولة وتجمع المياه في الزاوية القريبة من الحمام. والماء ينز من جدران الأسمنت في مواضع عدة، أكثرها نضوحا عبر شق صغير تشكل حديثاً في الجدار أسفل الدرجات. دخلت الحجرات

وخرجت مرتين متتاليتين دون أن اعرف ما يتوجب علي فعله. فكرت بشفط الماء المتجمع بالأسفنج وعصره في فتحة المرحاض. سحبت وسادة أسفنجية من تحصينات موضعي. نزعت عنها غطائها. وتذكرت في تلك الأثناء جدار الأسمنت في حجرتي. فقصدته وألصقت نصف وجهي الأيسر بالحائط دافعاً الفانوس في الفتحة بينه وبين جدار الكتب فوجدت شبكةً من خطوط المياه الصغيرة المنزلقة بهدوء إلى السجاد وأرضية الحجرة. تيقنت من حتمية غرق السرداب فقمت على الفور بحملة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وفراشي كان أول شيء خطر في بالي. لففته على نحو أسطواني ووضعته مع سلة ثيابي والراديو والبطاريات وعلبة الثقاب على الدرجات ثم دخلت في صراع مع الزمن وأنا أنقل الكتب وأعيد ملء جدار من صناديق الحديد تاركاً صفها الأول فارغاً تحسباً لتسرب المياه إليها، وجعلت من عدد منها قاعدةً لصناديق الخشب والكرتون رميت بداخلها الكتب كيفما أتفق. وفي هذه الأثناء كانت المياه قد ارتفعت بضع سنتيمترات في أنحاء السرداب ولم يبق للكتب على ارض الحجرة، مساحة آمنة من المياه، ولم أعد أملك قوة كافية لرفع ذراعي من التعب والبرد. فجلست على الدرجات مسنداً ظهري على باب السرداب، أراقب ارتفاع مستوى المياه وأصغي بقلق إلى تحذيرات الصوت الذي يشبه صوتي باحتمالات أن أموت غريقاً لأنني لا أجيد السباحة.

في صباح اليوم التالي كان منسوب الفيضان قد توقف عند مستوى درجة السرداب الثانية، وتوجب علي الانتظار فوق الدرجات مقمطاً بالبطانية لغاية مجيء أمي يوم الجمعة لإيجاد طريقة نتخلص بها من الطوفان. المياه كانت نظيفة في ساعات الغرق الأولى لكن لونها تغير الى الرمادي مع مرور الوقت وأخذت رائحة ثمان سنوات من خرائي تفوح في المكان بعد أن أخرج المرحاض أثقاله. مخزوني الغذائي من جبن المثلثات وحلاوة الطحينية والدبس والكليجة كان في سلة على ارض الحجرة الأولى غمرته المياه ولم يكن أمامي سوى خبز رقاق أخفف به منقوعاً بماء الحب بعضاً من جوعي. وهو ما اضطرني إلى خوض المياه بقذارتها. نزعت بنطالي القطنيين مبقياً على السروال الداخلي. هبطت بأصابع قدمي أولاً لقياس مستوى البرودة. وقفت على رجل واحدة فوق الدركة ما قبل الأخيرة، ثم أنزلت قدمي الأخرى دست بها صفحة الماء. هبطت الدركة الأخيرة وسرت بوداعة رافعاً ذراعي مثل فزاعة طيور. وعندما احتجت إلى تفريغ مثانتي، قمت بعملية النزول ذاتها وذهبت عند زاويتي. أثنيت ركبتي قليلاً للتخفيف من الصوت قدر الإمكان. راقبت اختفاء خيط البول مع بخاره في الماء واستسلمت لرجفة الانتهاء اللذيذة.

****

مساء الخميس، عاد الهرير مجدداً إلى السرداب. أفزعني صوت موائه المفاجئ، لم أكن أستطيع مشاهدته من مكاني فوق الدرجات، لذا انتظرت لدقائق أن يذهب من تلقاء نفسه. لكنه كرر مواءه بحرقة وبتتابع أفقدني أعصابي. وفجأة سمعت صوت ارتطام شيء بالمياه توقف معه المواء. قفزت وأنا بثيابي بلا وعي مني لأنقذه من الغرق. خضت بكل ما أوتيت من قوة والمياه بثقل الحديد يعيقني. استطالت المسافة بين الدرجات وعطفة الممر، سقطت متعثراً بشيء ما وتبللت بالكامل. نهضت وواصلت منعطفاً فلمحت بياض ذيله يختفي من فتحة الكسر وشيء من قماش الجنفاص يلوح في المياه أسفل النافذة فوق السجادة الغريقة.

****

تعاملت أمي بخفة مدربة مع الطوفان. مررت من الخارج عبر الشق طرفي خرطومي ماء مطاطيين احدهما احمر والآخر أزرق. ربطت طرفيهما الآخرين بمضختي سحب مياه في الحديقة، استعارت أحداها من بيت الجيران. وبسبب نظام تقنين تزويد الأهالي بالكهرباء القائم منذ 1991 بعد قصف التحالف الدولي

محطات التوليد. عملت المضختان ثلاث ساعات وتوقفت ساعة أو اثنتين في كل مرة. وذهبت أمي إلى مرآب وقوف الشاحنات في منطقة الفيصلية، وجلبت معها صهريجي نزح المياه الثقيلة، أفرغتا في دقائق ما تجمع في الخزان الكونكريتي تحت الحديقة الخلفية. وعند ظهيرة السبت كانت المياه قد انحسرت في السرداب. وأمي وجدتي تقدران حجم الأضرار بعد أن أرسلتا البنات إلى بيت خالي زياد، بينما كنت جالساً عند زاويتي أسلم نفسي لسلطان النوم بعد تمرد إجباري لأربعة أيام. فجأة تذكرت صندوق المخطوطات. نهضت فزعاً وركضت إلى حجرتي. جثوت على ركبتي بالقرب من الصندوق، أمسكت غطائه بيدي. رفعته بهدوء وقلبي يدق مثل طبل. وفي هذه الأثناء سمعت صرخة أمي ورنة صدرها وهي تضربه بقوة، فخرجت لأجدها تشد شعرها بيد وتلطم بالأخرى منتحبة مع جدتي وهما جالستين على الأرض الندية تقابلان كمفجوعتين الشق الطولي الظاهر في الجدار أسفل درجات السرداب.

سنوات جدتي الست والسبعون وفقرات أمي المتسوفة جعلتاهما تكتفيان بتوجيهات شفوية نفذتها حرفياً على مدى أسبوع كامل. فأخرجت الكتب من حجرتي إلى الممر بعد شطف وتنشيف سريعين وفصلت الجافة منها عن المبتلة. فعلت الشيء ذاته مع الصحف والمجلات وطويت سجادة حجرتي بنحو أسطواني وأسندتها بجوار الأخرى في الممر مائلتين إلى الجدار الأسمنتي

قرب نافذة السرداب الثانية، وأخرجت إلى الممر أيضاً وبعناء كبير الصف الأرضي من صناديق العتاد الخشبية بعد أفراغ ونقل محتوياتها المبتلة أولا. وكومت الصناديق المتبقية منها مع حقائب السفر الجلدية داخل حجرتي. محتويات الحجرة الأولى أنقذتها مصاطب الخشب، لكن جدران الحجرة الخشبية ذاتها مع باقي الحجرات، كانت بحاجة إلى تجفيف لتخليصها من الرطوبة، وهكذا وجدت مدفأة علاء الدين شيئاً تفعله بعد ثمان سنوات من البطالة.

أعتاد أنفي على رائحة مابعد الطوفان، لكن أمي داخت منها واحتاجت من أجل تبديدها الكثير من أصابع البخور وزعت دخانها بسخاء في أنحاء السرداب. وأغلقت شق جدار الدرجات بلبخة أسمنت وهي تقرا ما تحفظ من القرآن، تتوقف بين الحين والآخر تجهش ذارفةً دموعاً، ثم تواصل. قالت بعد أن فرغت من اللبخ:

- في صغرك حدث الشيء نفسه بعد أمطار غزيرة هطلت في الربيع. تحول السرداب بسببها إلى بحيرة. عالجها والدك بعد أن أستقدم متخصصين سحبوا المياه. فرشوا خلطة تراب وصخور جبلية على طول السرداب، ثم غطوها بكونكريت صاف رفع الأرضية لنصف متر وغطى من الدرجات أثنتين.

ثم تابعت وهي تجلس بمكاني في الزاوية:

– تشييد سد صدام على النهر شمال الموصل، جعل المدينة كلها طافية فوق بحيرة من المياه الجوفية، ترتفع مناسيبها إذا هطلت الأمطار بغزارة كما حدث.

قلت مازحاً :

– يبدو أنني لن افلح أبدا في الهرب منه، فحتى وأنا في السرداب تسبب لي بطوفان.

* * * *

الهرير كان أكثر هدوءاً وهو يدفع برأسه الصغير قطعة الجنفاص. ضربها بيديه وقلب على ظهره داخل إطار النافذة. قفز مبتعداً عنها وذيله مرفوع، ثم عاد مسرعاً وأحتضنها متشقلباً معها. كنت أراقبه من زاويتي بفرح طفولي في غفلة منه. ماءَ بصوت خافت لعوب وأقترب من الحافة. بدا أكبر من السابق وهو يرمق السجادة المائلة أمامه. مد خطوة في الهواء وأرجعها. سمعنا سوية صوت مواء قط بالغ يأتي من الخارج، قوس بدنه وسار بتلك الوضعية ملصقاً نصفه بزجاج النافذة وتقدم ببطء صوب فتحة الكسر، أرتفع صوت المواء في الخارج، كان طويلاً يشبه صوت نداءٍ تغيرت نبرته على الفور بمجرد أن رد عليه الهرير وامتدت معها بحذر إلى الداخل عبر الفتحة يد قط بيضاء كبيرة، ارتمى

عليها الهرير بنحو خاطف، فارتعبت اليد وانسحبت مع مواء فزع تفاعل معه الهرير بدوران حول نفسه، ثم عادت اليد لتفتش عنه في فراغ ما بعد فتحة الكسر وصدرت عن القطتين أصواتٌ لم تكن مواءً على الإطلاق، بل شيء أشبه بالحوار القططي بين أم وأبنها.

* * * *

بطانة صندوق المخطوطات الجلدية لم تسمح بمرور كمية كبيرة من المياه ومع ذلك لم تنج من التلف كثير من صفحات شمس المعارف والفتوحات المكية وشرح ديوان المتنبي. أخرجت السليمة بتأن ووضعتها داخل سلة ثيابي وغطيتها بإحدى البطانيات. وأملت الصندوق بما فيه قريبا من المدفأة ليجف. جدتي قالت وهي تهز رأسها بأسف على بلل الصندوق أن الحاج جميل حصل عليه نهاية الأربعينات من تاجر يهودي صفى ممتلكاته وغادر مع آخرين من أبناء جلدته إلى فلسطين وأماكن أخرى. وكل من سمع بذلك أندهش من احتفاظ يهودي بالقرآن وكتب أخرى خاصة بالمسلمين.

– لكن جدك لم يستغرب أبدا.

قالت هذا وهي تفرك يديها:

– ردد باستمرار أن لليهود من سكان الموصل وبغداد والبصرة وغيرها من المدن فضل على البلاد في كل المجالات، مثل المسيحيين والعرب تماماً وهم ضحايا السياسة ودناءتها التي أجبرتهم على ترك وطنهم وإسقاط جنسيته عنهم.

كانت هذه آخر مرة أستمع فيها إلى صوت جدتي. فبعد أسبوع واحد فقط أصيبت بجلطة دماغية شلت نصفها الأيسر وأفقدتها النطق. ولم تستطع علاجات سنة كاملة من رفعها عن الفراش أو تحريك أصبع مشلول منها. وظلت أمي وأخواتي يقلبنها بموجب جدول زمني مقسم بينهن لكي لا يتعفن جلدها. وقصرت أمي زياراتها لي كل جمعة على دقائق زودتني خلالها بالمئونة وتقارير منزلية سريعة، سردتها وعيونها تدور باستمرار بيني وبين باب السرداب. كان عليها في كل مرة العودة مسرعة إلى البنات فلم يعد هناك من يشغلهن ويحمي ظهرها من التطفل. وأحيانا كانت تكتفي بالوقوف على الدرجات، تضع سلة طعامي جانباً. تفرك وجهها بكفيها بعد قراءة خافتة لسورة الفاتحة، ثم تختفي.

تفكيري المستمر بالموت نتيجة حالة جدتي المرضية وعبارة أمي المكرورة عن وضعها"رجل في البيت ورجل في القبر"، دفعني غريزياً للانهماك في قراءة كتب الدين، ودخلت سريعاً في ورطة الحيرة بين المتفق والمختلف عليه بين المذاهب. فبدا لي أن بعضها يعاند البعض الآخر. والكثير من الكتب كأنها كتبت رداً

على أخرى حتى وإن لم يفصح عن ذلك مؤلفوها. كل طرف أكد حتمية ذهابه إلى الجنة والآخرين إلى النار وأستند في ذلك على آيات وأحاديث أستخدمها الجميع تقريباً في الإسناد مع اختلاف في صيغ الأحاديث وناقليها. ولذلك انتقلت إلى الجانب السيري والقصصي في الدين وانبهرت بتعامل النبي مع صحابته ودعوات الحب والسلام والحياة التي كان يعلمها إياهم. ويطلب نشرها إلى أبعد مدى، خلافاً لما كان يصرخ به خطيب الجامع القريب من بيتنا في دعاء يختتم به خطبته كل جمعة طالباً من الله أن يدمر أعداء الدين بالحرق والخسف والغرق والجرب وأن يرمل نساءهم وييتم أطفالهم ويورثنا أموالهم وديارهم.

خلال سنة مرض جدتي أيضاً نجحت في إيجاد طريقة أنقل بها علاقتي بالهر وأمه إلى مرحلة الصداقة، فأعتاد على وجهي كأول شيء يجفل منه وهو يعبر كسر النافذة. وبعد أن أطلقت عليه أسم آمانج أصبح يعتاد على صوتي وصار يقترب مني بفضول فأمد له قطعة خبز رقاق ناعسة، يأخذها ليلوكها عند زاوية النافذة وهو جالس يرقبني بألفة. ثم بدأتُ خطةً لاستمالة الأم ببياض الجبن المثلث. كانت تمد يدها إليه بحذر شديد عبر شق الشبكة وكسر النافذة، تغرس فيه مخالبها وترفعه ثم تديره في الهواء ليستقر في راحتها وتمده إليها في الخارج بينما نتابع أنا وأبنها في الداخل بسعادة طفلين. وبعد علبتي جبن سمحت لي بلمس ذراعها وببقاء الهرير معي فترات أطول. كانت تطلبه بين الحين والآخر لتسد

جوعه بالحليب، فيعود بعدها ليملأ السرداب بالمرح. واكتشفت أنني يمكن أن أمارس دور أمه دون حاجة إلى ذيل وأثداء. فأذبت له الحليب المجفف في الماء ليشرب بلطعات سريعة ومضحكة أدمن عليها لاحقاً. وصارت أمه تناديه بتركيبة مواء من صوتين، فيكتفي بالنظر إلى النافذة وهو منبطح جواري على الأرض قريباً من زاويتي دون أن يرد. كانت تعرف من خلال رائحته انه هناك، فتدخل يدها عبر الفتحة وتلح في المواء لاستعادته. وكان هذا الموقف يدفع الصوت الذي يشبه صوتي إلى عقد مقارنات بين أمينا أنا وآمانج. ويحاول بخبث الشياطين أن يرجح كفة القطة. فأحتج بإعادة شمل الصغير بأمه واهرب من البكاء مندساً في فراشي، أفتش عن موجة إذاعية تبعدني عن السرداب.

****

مدفأة علاء الدين تنقلت أسابيع طويلة بين الحجرات لمكافحة الرطوبة التي ظلت ولغاية شهر آب من تلك السنة مثل خرائط مطبوعة على الجدران. غارات الطائرات الأمريكية تحولت إلى حدث شبه يومي، كنت أسمع أزيزها أو تفجيراتها بنفسي أو ينقل الراديو أخبار ما تفعله في مدن عراقية أخرى. وقام النظام العراقي بإغراء الطائرات من اجل ضرب مواقع مدنية لتأليب الرأي العام

الدولي ضد سياسة أمريكا ولم يكن يمضي أسبوع حتى استمع فيه إلى خبر إذاعي عن استهداف صاروخ لمدرسة ما. كانت تقول الإذاعات العراقية أنه هجوم ضد الطفولة العراقية، وإذاعات تبث من خارج الحدود تؤكد أنه أستهدف بطرية صواريخ أو راداراً وضع بالقرب منها.

في الخريف تزوجت أختي شمس من أربعيني مقيم في الأردن منذ حرب إيران، كان هاربا مثلي من العسكرية. أوصلتها إليه هناك حماتها بعد أن دفعت أمي رسوم سفرهما البالغة 800 ألف دينار عراقي، وحقيبتين ملأتهما بملابس من السرجخانة وباب السراي.

أمانج هجر أمه أو هجرته هي. وصار يقضي معظم يومه معي في السرداب بعد أن وسعت له كسر زجاج النافذة قليلاً ليستوعب نموه. كان يفرك فروته برجلي ويستلقي في حضني. يجن راكضاً عبر الأبواب أو قافزاً فوق الحقائب. وفي لحظات هدوءه يستمع إلي باهتمام وأنا أحدثه عن أمانج الكبير. وحواراتنا الهامسة ليلاً بينما كان الجنود منخرطين في حفلات شخير داخل قاعة النوم. وضحكاتنا الساخرة من باقي العرفاء والضباط ونحن ننظر إليهم من البعيد ذاهبين أو عائدين من تنفيذ عقوبة تكفل بتنفيذها. رفع الهر أذنيه ذات مرة عندما قلت له بان أمانج أنقذ حياتي. أخبرته أن ذلك حدث في الأسبوع الأخير من وجودي في مركز التدريب، كان الوقت فجراً، وكنت أفرغ في الفرن كيس دقيق

في قدر كبير لأعداد عجينة الصمون للفرّان عندما جذبني أمانج من ذراعي واقتادني مسرعاً إلى قاعة سريتنا وهناك طلب مني تبديل ثيابي العسكرية بأخرى مدنية وأخذ حقيبتي ومغادرة المعسكر على الفور لأن لجنة من قوات الحرس الجمهوري ستصل المعسكر في وقت التعداد الصباحي في العرضات وستختار جنوداً يذهبون بهم إلى الكويت بغض النظر عن الكفاءة والمقدرة القتالية. وقال بأنه سمع الضباط يقولون بان اللجنة القادمة من بغداد ستركز على خريجي الكليات وإنني وعلى الرغم من غبائي العسكري سأكون هدفاً لتلك اللجنة التي تهتم بالأرقام وليس بالقابليات. تابع أمانج القط ذراعي وأنا أمدها إلى الأمام قائلا له بأننا ذهبنا إلى البعيد حيث سور الأسلاك الشائكة لحدود المعسكر الخلفية، رفعها لي أمانج فزحفت برشاقة من تحتها إلى الجهة الأخرى وركضت بأقصى ما أستطيعه من سرعة دون أن التفت لألتقط الحقيبة التي رماها أمانج خلفي، لكنني سمعته بوضوح وهو يقول بصوت كالبكاء: " أنتبه إلى نفسك".

****

صباح يوم الثاني عشر من كانون الأول 1999 توفيت جدتي وقبل أن تلفظ أنفاسها بربع ساعة نطقت للمرة الأولى مرددةً أسم أبي وأختي سعاد وكررت أول حرفين من أسمي ثلاث مرات وكأنها تحاول أن تقول شيئاً للبنات وهن يحلقن قربها فرحاً بعودتها. فتداركت أمي الموقف وحجبت بعرض جسمها الرؤية عن أخواتي، مشوشة على صوت جدتي بالدعاء لها. ثم بقراءة متأنية وبصوت عالٍ لما تيسر لها من سورة الكهف. وعندما فرغت أمي من تلاوتها، كانت جدتي قد توفيت وظل فمها مفتوحاً وعيناها معلقتين بالسقف.

فرضت حداداً في السرداب لثلاثة أيام متتالية، توقفت فيها عن تشغيل الراديو وعن أنتصابات متابعة شريط الصور الخلاعية في خيالي. وقاطعت جولات اللعب مع أمانج احتراما لروح جدتي. جلست ساعات عند زاويتي أفكر بالموت وما يواجهه الإنسان وهو بمفرده في حفرة مردومة بالتراب. وكانت حماقة مني أن أفتش في بطون عشرات من كتب الدين للقبض على إجابة لسؤال دق في رأسي مثل جرس بشأن المكان الذي تنتقل إليه الروح في مرحلة ما بعد الموت. لأنني لم أجد سوى اختلافات بين فقهاء عاشوا جميعاً في عصور قديمة كان الذي يقرأ ويكتب فيها مثل زورق يموج في بحر من جهل.

اعتمدت على نفسي في الحصول على إجابة. تقمصت جلسة اليوكا تحت رقابة لصيقة من أمانج وفتشت بذهني في أرجاء

جسدي بحثاً عن مستقر روحي. خمنت أنها في رأسي تجلس مثلما أفعل، تسير من هناك مركبتها الذي هو جسدي وعيناي نافذتاها. جدتي كانت تقول بان الروح مثل انعكاس ضوء الشمس في مرآة، تخرج بسرعة ضوئية عند الموت من إصبع القدم الكبيرة أو عبر ثقب في الرأس أو القلب. وان أزرائيل يتلقف وهو بكامل أناقته الملائكية أرواح الطيبين مبتسماً ويقابلوه بابتسامة رضا ويفعل العكس مع الأرواح الشريرة. جدتي لم تكن تعرف بان روحها ستكون على الحياد وأنها ستموت مندهشة بفم مفتوح. ربما لأن روحها استغرقت أحد عشر شهراً قبل أن تكتشف طريق خروجها أو لأنها لم تجد لحظة موتها ما آمنت به وتحدثت عنه طوال حياتها.

استغلت أمي في الجمعة الأخيرة من ذلك العام حزني المتواصل على وفاة جدتي، وحاولت مجدداً أقناعي للخروج متذرعة بقانون حكومي دخل حيز التنفيذ وقتها يسمح للهاربين والمتخلفين العسكريين بتسليم أنفسهم للجهات المختصة، ودفع بدل نقدي للحصول على تسريح قانوني من الخدمة الإلزامية. وعندما جابهت مقترحها بالرفض لأسبابي القديمة ذاتها. أفرغت كيساً ورقياً كبيراً من الأدوية والحقن على صندوق عتاد في الممر وجلست فوق آخر لتعدد احتمالات موتها الوشيك بواحدة من الأمراض التي تنهش في جسدها. متهمةً أياي بتعريض عائلة

سالم أبو درع إلى خطر الانقراض بسبب عنادي. قالت وهي تبعد أمانج بركلة:

– أخواتك بحاجة إلى من يقف إلى جانبهن ويحميهن وأنا لم اعد قوية كالسابق وأخشى دائما عندما أضع رأسي على الوسادة للنوم أن لا أصحو منه أبداً.

– لكنك في الأقل مطمئنة إلى وجودي تحتك في السرداب. كيف تضمنين سلامتي عندما أخرج.

– يقولون بأن هنالك تغييرات في حزب البعث، وصدام يعتمد على الشباب الآن، ولم نعد نسمع بإعدام أحد.

– لم يتغير شيء، صدام باق في مكانه وأسمع من الراديو حكايات الموت اليومية بسبب أو بدونه.

شعرت وللمرة الأولى بأمي تائهة ولا تدري ماذا تفعل. أعادت بشيء من الانكسار علب دوائها إلى الكيس وهي تحدث نفسها عن عمر ضاع بالحزن والخوف وانتظار تحقق مغادرتي للسرداب. توقفت برهة ثم نظرت إلي وتساءلت:

– ماذا لو بقي صدام في الحكم إلى الأبد.

بعد جمعتين كاد أن يتحقق حلمها عندما وضعت يدها على مفتاح خروجي السحري دون أن تدري. فعلت ذلك ببرود وهي مستغرقة في الحديث عن جولاتها المكوكية بين مستشفى المدينة العام ومحكمة الأحوال الشخصية ودائرة التسجيل العقاري

لاستصدار شهادة وفاة لجدتي ونقل تركتها من الأراضي الزراعية إلى ملكيتنا أنا وأخواتي باعتبارنا ورثتها الوحيدين. وفجأة أخرجت المفتاح عندما قالت بأنها قابلت محامية بغاية الجمال في الجهة الشرقية من باحة محاكم استئناف نينوى عندما كانت تنتظر محامينا أن يفرغ من جلسة مرافعة. وبعد حديث نسوي سريع علمت منها أنها كانت زميلة لي في ذات الدفعة التي تخرجت ضمنها من الكلية. واستغربت أمي كيف أنني كنت أحدثها بكل صغيرة وكبيرة عن حياتي الجامعية، أحداثاً وشخوصاً وأغفلت زميلتي ذات العيون الخضر والوجه المستدير مثل قمر. أحسست بجسمي يرتفع عن الأرض، وشيء ما يدفعني بقوة نحو أمي للتأكد أن ما يجري ليس جزءاً من حلم. أمسكت بكتفيها وقلت مذهولاً وأنا أكاد أبكي:

- ما أسمها.

فردت بقلق:

- ياسمين!.

* * * *

مشيت حتى منتصف تلك الليلة بين الدرجات والنافذة الثانية أستعيد تفاصيل كلام أمي عن لقاءها بياسمين وتأكيدها خلو أصابعها من الخواتم والحلقات، ووصفها الدقيق لشكلها الذي طابق النسخة المطبوعة على جدار قلبي على الرغم من مرور أكثر من عشر سنوات على آخر أشراقةٍ لها في حياتي. كنت أضحك وأبكي فرحاً واستند بين حين وآخر بإحدى كتفي على جدار الأسمنت أو الخشب طالباً صفح ياسمين لخياناتي المتكررة لها طوال السنوات الخمس المنصرمة وأقسمت رافعاً سبابتي إلى أعلى بأنني لن أمارس العادة السرية أبداً وسأشطب عري النساء من صحوي ونومي وسأظل كما كنت دوماً مخلصاً ووفياً لها.

سهرنا انأ و أمانج لغاية الصباح نستمع بهدوء عاشقين إلى أغاني الحب عبر الراديو، وبين أغنية وأخرى كنت أحدثه عن ذكرياتي في زمن الكلية. حكيت له عن أول مرة انتبهت فيها لسحر ياسمين وكان ذلك في يوم دوامنا الثالث في المرحلة الأولى، كانت تقطر عسلاً وهي تدقق في قوائم المحاضرات المعلقة في لوحة الإعلانات، تمرر إصبعها المضيء بياضاً فوق الكلمات وعندما تأكدت من مكان ووقت محاضرات ذلك اليوم، أفرجت عن غمازتيها فرحاً ثم سارت لتحيل رواق طابق الكلية الثاني إلى حديقة زهور.

أفضيت لأمانج بسر لم يطلع عليه مخلوق قبله، اعترفت له بما فعلته في يوم عودتنا الأول من العطلة الربيعية في المرحلة الثانية

عندما كان الطلاب جميعا بمن فيهم ياسمين يحضرون مؤتمراً عن القانون والمجتمع عقد في قاعة الكلية. تصنعت كما جرت العادة في مثل تلك المناسبات مرضاً لأمكث في قاعة الدراسة. انتقلت من مقعد إلى مقعد وأنا أراقب الباب، إلى أن وصلت مقعدها ووجدت هناك أربعاً من كتبها المنهجية، كانت بالنسبة لي شيئاً منها، قطعة ياسمينية تحمل بصماتها ورائحتها. بعد تردد استمر نحو دقيقة أخذت أحد الكتب وعدت مسرعاً عائداً إلى مقعدي. تابعني أمانج وانأ انهض من الفراش لأصف له بحركات داخل الحجرة كيف أنني أخفيت الكتاب وكان القانون المدني تحت قميصي وتسللت إلى دورة المياه وفتحته هناك بعد أن طبعت قبلةً على جلده الوردي اللماع. كان أسمها الثلاثي مكتوباً بخط بديع فوق عنوان الكتاب في الصفحة الداخلية الأولى. والكثير من الكلمات كملاحظات في صفحات متعددة أخرى ووجدت منتصف الكتاب زهرة بيبون متيبسة وصفحة مطوية. كنت اقلب الصفحات، أتشممها واحدة بعد أخرى. وقلبي مبتهج لأنها ذات الرائحة التي كانت تسكبها في انفي عندما تمر بي. كان الطلاب قد عادوا ودخلوا محاضرةً عندما رجعت وعند الباب الموصد حاصرتني الخشية من اكتشاف ياسمين لسرقتي. لم اعرف كيف أتعامل مع الأمر لحظتها سوى بالهرب. أخذت زهرة البيبون ورميت الكتاب على الأرض وركضت مبتعداً صوب مركز الجامعة الطلابي. ولم

أرجع لأخذ حقيبتي إلا بعد اطمئناني من انتهاء الدوام وخلو الكلية من ياسمين.

أمانج حيوان، لم يستوعب سبب عدم إعلان حبي لياسمين على الرغم من تأكيدي المستمر له أنني كنت أشعر بالضآلة أمامها وبعدم المقدرة على منافسة جيش من شبان مكتملين وموزعين في أروقة وزوايا الكلية وخارجها ينتظرون كل يوم أخذ دور استعراض الوسامة أمامها. هو ظن بأني كنت جباناً وترتعد فرائصي كلما هممت بمجرد المرور بجوارها. فهمت هذا عندما رفع ذيله وأشاح بشعر وجهه عني. لكنني لم ادخل معه في جدال عقيم بشأن ذلك. وتوصلت معه إلى اتفاق يقضي بعدم الحكم على أحداث جرت قبل أكثر من عقد. وأننا أبناء اليوم وياسمين ظهرت وعاد معها أملي بالحياة.

****

تنفست فتحات جدار حجرتي ضوء صباح مشرق. كان أمانج قد غفا وفيروز تغني"كيفك أنت". كنت أسعد مخلوق تحت الأرض وفوقها والرغبة في الحياة تملأني و تنهال على رأسي بآلاف من الأفكار ومشاريع الحياة التي كانت مؤجلة. فكرت وأنا احلق شعر ذقني في الحمام باللحظة التي سأقف فيها أمام ياسمين في

المحكمة بربطة العنق حاملاً حقيبة سمسونايت وعلى ذراعي رداء المحاماة. وكيف أنني سأمنحها وقتاً لكي تتفحص ملامحي وتمسح عن ابتسامتي غبار كل تلك السنين وتتذكرني جيداً وعندها أقول لها كل ما في قلبي دفعة واحدة وبدون أية تأتأة.

سنوات وجودي في السرداب لم تكن هدراً في العمر ولو طلب مني البقاء ضعف مابقيت وكوفئت على ذلك بنظرة حب واحدة من ياسمين لقبلت دون تردد. أكدت هذا للصوت الذي يشبه صوتي قاطعاً عليه طريق ثنيي عن طي صفحة السرداب، واتخاذ موقعي الطبيعي حراً بين الناس. ثرثر كثيراً عن شكوك تراوده حيال لقاء أمي بياسمين واعتقاده بأن ما قالته طعم ابتلعته بسهولة لطيبة قلبي. وسألني قبل أن الصق أذني بالراديو للتشويش عليه:

– ماذا لو خرجت ولم تجد ياسمين.

****

قرار الخروج أحتاج من اجل تنفيذه إلى إجراءات معقدة تعلق معظمها بي، فيما كان على أمي تامين معبر آمن لي بين بابي السرداب والمطبخ أو الاستقبال. لكي أصل عبر أي منهما إلى باحة المنزل الخارجية وأبدو كمن دخل للتو عندما تنادي على أخواتي لتفاجئهم بخبر عودتي السعيد. وقبل كل ذلك كان علي أن

أحفظ أسماء بعض الأماكن في عواصم ومدن أوربية عدة أفترض أنني سحت فيها طوال السنوات العشر المنصرمة لأدعم بها الكثير من القصص التي كان يتوجب علي سردها ليس فقط في حدود بيتنا وإنما للجهات الحزبية أو العسكرية قبل التحاقي بالخدمة ودفع البدل النقدي الذي دخل قانونه وقتها حيز التنفيذ. ولأن أخواتي لن يجدنني سوى بثيابي التي علي. سأخبرهن بأنني فقدت حقائبي في المعبر الحدودي وكان في أحدها محفظة صغيرة متخمة بالدولارات ومستمسكاتي الشخصية.

حددت صباح يوم السبت التالي موعداً لتنفيذ خطة خروجي. مانحاً أمي عصر الجمعة الوقت لتشتري فيه ثياباً جديدةً لي من سوق الدواسة مع حذاء رياضي يظهرني بهيئة أوربية. وقضيت ساعات نهاري يومي الأحد والاثنين أدندن مع نفسي أغاني وقصائد العشق وأنا أعيد ترتيب موجودات السرداب كما وجدتها أول مرة. بدأت بالعدد والمواد المنزلية في الحجرة الأولى ثم انتقلت إلى الصحف والمجلات والكتب في الحجرة الثانية. وصباح يوم الثلاثاء أجريت فرزاً دقيقاً لموجودات صناديق العتاد الخشبية الخمس في الممر. واستغربت كيف أن الخوف منعني من ذلك سابقاً. فقد كان كل ما فيها يخص أبي. أكداس لا حصر لها من الأوراق ومئات من الملفات العسكرية خضراء اللون مع أختام والعديد من علب الحبر الأزرق والأحمر والأسود وأشياء مكتبية أخرى. نقلتها إلى الحجرة الثالثة بالطريقة التي أخرجتها بها

ووضعتها فوق بعض فتشكل منها عمود توقف عند أول صف من فتحات الضوء. الفضول والتحرر من الخوف دفعاني للبحث في بطون صناديق العتاد الأحد عشر المتبقية. الأربع الأولى كانت مثل سابقتها حبلى بالأوراق والملفات. أما الخامس فقد ضم رزماً من كتيبات صغيرة عن التدريب العسكري وخرائط متعددة الأحجام والأشكال. السادس أحتوى حقائب يد جلدية صغيرة ومتوسطة. بعضها كان فارغاً والأخرى فيها أوراق ومحاضر اجتماعات ومؤتمرات وندوات عسكرية وأقلام ودفاتر صغيرة لم يكتب فيها شيء. الصندوق السابع كان متخماً بالسجلات، معنونة وغير معنونة، أخرجتها واحدة بعد أخرى وفي السجل الثالث عشر وجدت أبي.

رسالة من الأب

ما كنت لأنتبه للسجل ذو الغلاف الجلدي الرمادي لولا أسمي الذي كتب في أعلى صفحته الأولى بخط أخضر كبير.

وتحته خطان أزرقان. وعلى جانبيه وأسفله بأربع أسطر الكثير من الكلمات المشطوبة بخطوط متوازية من الأسود والأحمر. وعند منتصف الصفحة تماماً. بدأت جملةُ وكأنها استمرار لحديث طويل سابق: "ولذلك كله قررت توضيح الحقيقة لتنقلها بدورك مثلما هي إلى الناس وجنودي الذين كانوا تحت إمرتي على وجه الخصوص".

تملكني إحساس غريب عندما اكتشفت أن السجل عبارة عن رسالة من أبي موجهة لي، ووصلتني في غفلة من أمي. قلبت الصفحات بسرعة، كان نحو مئة منها مكتوبةً بثلاثة ألوان قلم جاف، تنتهي في منتصف السجل تقريباً بورقة مطوية على شكل مثلث. تلفتُ يمنةً ويسرة. دخلت حجرتي وخرجت ادقق في الممر وعند زاويتي والحمام. فلم أجد طيفاً لأبي ولا أي علامة توحي بأنه التقط لحظة عثوري على السجل.

الكلمات كانت متباعدة ومكتوبة بحروف كبيرة تشبه التي يخطها تلاميذ الابتدائية في واجبات الإملاء المنزلية. فيها الكثير من الأخطاء والتكرار والشطب. لكنها كانت مفهومة بالنسبة لي وواضحة أمام فضولي الذي مارس دور المصحح. على الرغم من أنها كانت بضمير الغائب. لوهلة اعتقدت أن هنالك من كتب لأبي ما سرده. استبعدت أن تكون أمي. أو جدتي أو إحدى أخواتي، فكنت اعرف خطوطهن جيداً. ربما كان احد جنوده أو سائقه الشخصي أو مراسله. ثم تذكرت هوامشه على الأوراق

والملفات في صناديق العتاد كانت حروفها بذات الضخامة وجسامة الأخطاء الإملائية.

فرشت بحماسة شديدة السجل على أرضية الحجرة الثالثة. وضعت الفانوس قريباً وقرأت:

" يأمل أبوك أن تكون القادسية قد انتهت عندما يقع هذا الدفتر بين يديك. وإذا كانت مستمرة فيرجو أن يصبح ما سيقوله لك درساً يفيدك في حياتك. وتجربة لم يقدر له أن يوصلها إليك في الحياة اليومية.

أسمه الكامل، سالم جميل سامي الأفندي. مواليد 1937. تخرج من الكلية العسكرية عام 1959. دخل الكلية في العهد الملكي وتخرج في العهد الجمهوري. كان مثل باقي أبناء جيله يحلم بوطن عربي واحد من المحيط إلى الخليج، وبتحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني. وهذا كان سبب الخلاف الدائم بينه وبين والده المؤرخ الموصلي جميل أفندي. الذي كان ضد الحروب والفكر القومي. ويعارض أي انقلاب أو ثورة ضد الأنظمة الملكية سواءً في العراق أو غيره من البلدان حتى وان لم تكن عربية. في حين أن ابنه الوحيد سالم كان مؤمناً بضرورة التوحد تحت عنوان ورمز يجمع المواطنين العرب بغض النظر عن نظام الحكم ملكياً أم جمهورياً. ليكونوا أقوياء ويعيدوا تاريخاً ضيعه الاستعمار.

جدك جميل أفندي اعتزل الناس بعد سماعه بيان عبد السلام عارف عبر الإذاعة وإعلانه انتهاء عهد المملكة العراقية بنجاح

ثورة 14 تموز 1958. وجعله الحزن على مصير الملك وعائلته طريح الفراش ثلاثة عشر يوماً. وقرر بعد ذلك توثيق أحداث العراق منذ تأسيسه كدولة وانتهاء العهد العثماني لغاية ثورة تموز التي سماها نكسة. كان يقول بان مسؤوليته المحافظة على التاريخ من تزوير وافتراء السلطة الجديدة. وامتنع عن التحدث إلى والدك أشهرا لرفضه ترك الكلية العسكرية. وهدده بالتبرؤ منه لكنه لم يفعل ذلك مطلقاً.

جميل أفندي كان محبوب المسيحيين واليهود والايزيديين في الموصل، كان يذهب إلى أماكنهم المقدسة في أعيادهم داخل المدينة أو في قرقوش وبرطلة والشيخان، ويستقبل في بيته في منطقة الميدان العشرات منهم في عيدي الفطر والأضحى. كان يحكي دائماً عن المسيحي عبود الطنبورجي الذي أصلح منارة الحدباء ورفض استلام مجيدي واحد لان المنارة واقعة ضمن بيت الرب. وكان يتحدث أيضا عن صديقه بنيامين اليهودي الذي علم الكثير من أبناء القرى شمال الموصل القراءة والكتابة مجاناً. وكان يفتخر بان لديه اكبر عدد من الكرفان * الايزيديين المستعدين للتضحية بحياتهم من اجله. عاش مؤمناً بان هذا المجتمع لا يمكن أن يعيش في نظام آخر غير الملكي. وأي نظام جديد ينشأ سيكون من فئة معينة ستحاول دائماً فرض قوتها على باقي الفئات وتضطهدها وتشعل الفتن بينها.

عندما وقعت ثورة 17–30 تموز 1968، فقد عقله. وأحرق ما كتبه في عشر سنوات. كان يقول بان الرجعيين الذين يلعبون بمستقبل البلد مثل الشقاوات لا يجب أن يعرفوا شيئا عن التاريخ. وقال لأبنه النقيب سالم بعد انتهاء حالة الطوارئ وعودته في إجازة دورية. أن النظام الجديد بدأ بالقتل. وسيتسمر على هذا النهج كقاعدة في الحكم. وانك ستكون ضحيته ذات يوم. وظل الحاج جميل أفندي على موقفه ذلك ومعتزلاً الناس حتى واتته المنية خريف سنة 1983 وهو يقرأ في غرفته كتاب الإنسان روح لا جسد.

والدك بقي مستقلاً عن حزب البعث طوال حياته، ورفض بشدة وصرامة الرشاوى والوساطات. ووقف بوجه المنافقين والمتملقين والضعفاء، وهذا سبب رئيسي لمشاكل حدثت له في الوحدات التي خدم فيها. كان عسكرياً حد العظم. تسلسل في الجيش رتبة وراء رتبة باستحقاقه ومثابرته بدون الاستناد إلى لقب عائلي أو دعم عشيرة. كانت علاقته بالآخرين جيدة. ما عدا الفاشلين الذين لا يتحملون رؤية شخص ناجح ومخلص في عمله. حصل على رتبة رائد بعد 10 أشهر من ثورة 17–30 تموز 1968. أي بعد مولدك بعام واحد. وأرسل خلال ثمانية سنوات في دورات كثيرة إلى الاتحاد السوفيتي وبريطانيا ورومانيا وجيكوسلوفاكيا. وانتقل بين معسكرات ووحدات من تلكبر شمال شرق زاخو حتى شط

العرب في البصرة. مرورا بمعظم المدن على الحدود الشرقية والغربية للبلاد.

صنف الدروع اخذ عقله. وكان يحلم بقوات نخبة مدرعة على غرار القوات الألمانية"بانزر" ودباباتهم التي تحمل أسم الفهد لقوتها وسرعتها في الانقضاض، وتحقق حلمه في عام 1980 بتشكيل اللواء المدرع العاشر الذي كان حجر الأساس لفرقة المدينة المنورة المدرعة التابعة للحرس الجمهوري.

أول معركة كبيرة خاضها في الحرب وقعت في الخفاجية"سوسنكرد"بالفارسية، تقع شمال غرب مدينة الأحواز الإيرانية، دُمرت فيها الفرقة المدرعة 16 الإيرانية بالكامل، إذ فقدت ما يقرب من 200 دبابة من طراز" M60A3 Patton"أمريكية الصنع.

وقف مع جنوده في ميدان المعركة. ونجا من الموت بأعجوبة مرتين متتاليتين عندما أصيبت دبابتان نوع T-72 ركبهما على التوالي، ورفع إصبع النصر فوق الثالثة محتفلاً مع عدد من المقاتلين بانتصاره الأول في الحرب ليحصل على نوط شجاعة قلده به الرئيس صدام حسين بنفسه في القصر الجمهوري مع ضباط من مختلف صنوف الجيش. ويومها قال له الرئيس" من اليوم أسمك العقيد ركن سالم أبو درع، لأنك بطل في صنف الدروع، وكذلك لأن شكل صدرك مندفع إلى الأمام. كدليل على شجاعتك"، وهكذا صار والدك يعرف بين الناس بسالم أبو درع.

في منتصف عام 1982 انتقل أبوك إلى اللواء المدرع 40 الذي سمي بعد ذلك لواء الحرس الجمهوري الثاني، وخاض مع ضباط ومنتسبين آخرين في اللواء معارك صغيرة كثيرة استمرت لغاية 1984على طول الحدود مع إيران بين ديالى والبصرة، باستخدام جيل جديد من الدبابات السوفيتية طراز" T-72M1 Tamiy ". وكان التنقل الدائم والقدرة الكبيرة على التخفي وخداع العدو الإيراني وتضليله، مع مقدرة اسنادية فائقة في الهجوم ورشاقة حركية ودقة نيران مباشرة، سبباً في قلب موازين أية معركة دخلها ذلك اللواء، وحصل معظم ضباطه على أنواط شجاعة، كانت حصة والدك منها ثلاثة أنواط مع سيف القادسية، وتم ترفيع رتبته إلى عميد ركن".

الربع الأخير من هذه الصفحة كانت أسطره مشطوبةً بحبر أسود، وكذلك الصفحات الخمس التالية، وقبلها ثلاث كلمات بعد ذكره لأسم صدام حسين، رجحت أنها"حفظه الله ورعاه" كتبها بلا وعي منه، ثم تراجع عنها. الشطب شمل أيضا أسماء أماكن ورتباً، وأسم الكتيبة أو الوحدة التي قادها أثناء المعارك في الحرب، مكتفياً بالإبقاء على العناوين الرئيسية.

وعاد ليقول مستعيناً باللون الأحمر:

" في كل مجالات الحياة هنالك أعداء للنجاح، سمعة والدك الجيدة على نطاق الدروع خلقت له أعداء كثيرين، أكثرهم ضرراً كانوا ضباطاً من أبناء مدينة الرئيس القائد، ولسبب لم يتأكد منه إلى

الآن تم نقله في تشرين الثاني سنة 1984 إلى الفرقة الرابعة عشر التابعة للفيلق الرابع في محافظة ميسان. عدد من أصدقائه الضباط ذكروا له بان السبب هو عدم انتمائه إلى حزب البعث، وغيرهم قالوا بان السبب حاجة صنف المشاة إلى خبرته، خصوصاً أن قدرة الدروع الإيرانية كانت قد ضعفت بشكل واضح.

ركز سالم اهتمامه بموقعه الجديد وكيفية استثماره للدفاع عن تراب الوطن ضد العدو الإيراني. وكون علاقة جيدة مع جنوده من القوات الخاصة خلال فترة زمنية قصيرة، وقادهم في معركة وجهت له أوامر للتحرك إليها في شهر آذار سنة 1985 استمرت أسبوعاً كاملاً لرد هجوم إيراني على قاطع عمليات شرق دجلة. وتمكنت تلك القوات بمساندة قوات أخرى من إيقاع هزيمة نكراء بالقوات الإيرانية المهاجمة في لسان عجيردة ولسان الزرداني ولسان هويدي وقرية البيضة.

الإيرانيون وبينهم صبيان في بعض الأحيان، كانوا يركضون مثل الجراد للانتحار في حقول الألغام على الحدود من اجل فتح الطريق أمام هجوم بري لقوات مستعدة خلفهم. العميد سالم ما كان ليشاهد تلك المواقف من داخل دبابة خلال خدمته في فرقة المدينة المنورة. كان بمقدوره فقط أن يرى الجثث المتفحمة والحديد المصهور. ولكن أثناء قيادته لواءً للمشاة أختلف مجال الرؤية وتفاصيل المعارك تغيرت. لكنه بقي يتقدم جنوده ونجا ثلاثة مرات

من رصاص قناصين ايرانين ومن قنبرة هاون 82 ملم انغرست على بعد قدمين منه في التراب دون أن تنفجر.

في ميسان تحدث والدك إلى جنود إيرانيين أسرى بواسطة مترجم، واكتشف يومها أنهم يسمون الحرب بين البلدين"دفاع مقدس"والكثير منهم كانوا يحملون مفاتيح سلمت إليهم من رجال دين قالوا لهم أنها تفتح باب الجنة عند الاستشهاد. بينما رجالنا كانوا يقاتلون بدون مفاتيح أو وعود خرافية ويفكرون بعقولهم للدفاع عن الوطن وتحقيق النصر حتى لو كان العدو أكثر عدداَ.

قاطع الفيلق الثالث كان قليل الاشتباك مع العدو في تلك الأيام وكان العميد سالم يلح باستمرار على القادة للاشتراك مع قواته في معارك أخرى على غرار التي وقعت شرق دجلة، وفي الأول من شهر أيار دعاه أربع ضباط برتبته وأعلى منه رتباً إلى اجتماع غير رسمي، قرروا فيه إبلاغ القيادة العامة للقوات المسلحة بخطة هجوم على قوات إيرانية مرابطة داخل أراض عراقية سيطرت عليها حديثاً ضمن حدود محافظة ميسان الشرقية وستشترك قوات المشاة والدروع وطيران الجيش في المعركة التي حددت لها ساعة الصفر يوم الأربعاء 7 أيار.

العميد ركن سالم أراد معرفة تفاصيل عن حجم قوات العدو وأماكن تمركزها بالضبط، لتوزيع جهد قواته في ضوء ذلك. وقدم اقتراحات لضمان عنصر المباغتة، وإحداث صدمة في صفوف العدو. استغرب من عدم اهتمام وحماسة الضباط لما يقوله.

وتفاجأ لقول احدهم أن الهجوم صوري، وهدفه رفع معنويات الجيش وستزف بشرى النصر بعد معركة تطلق فيها النيران ويتحقق فيها النصر، لكن لن تكون هنالك جثث للعدو ولا أسرى منه لأنه أصلا غير موجود في تلك المنطقة.

شعر العميد ركن سالم بألم في رأسه من الغضب، نهض وقال لهم بعصبية: " أنتم مجموعة من المحتالين واللصوص تخترعون انتصارات وهمية من اجل الحصول على هدايا ومكرمات القيادة العليا، وتأخذون حقوق الأبطال الحقيقيين الذين يضحون بحياتهم من الشمال إلى الجنوب كل يوم".

حاول اثنان من الضباط تهدئته وأقسموا أن زميلهم كان يمزح معه وأن الهجوم حقيقي وسيقع في الموعد المحدد.

بعد يوم واحد وبدلاً عن الهجوم العراقي وصلت معلومات استخبارية تفيد بتحشيد القوات الإيرانية قوات كبيرة خلف الحدود استعداداً لهجوم وشيك وعند منتصف نهار يوم الثالث من أيار وقبل أربع ساعات من قيام المدفعية الإيرانية بقصف تمهيدي. ابلغه الحراس خارج موضعه أن جندياً يريد التحدث إليه بأمر هام. كان الجندي مطوعاً من أهالي البصرة، قال للعميد أن ضابطاً كلفه بإيصال رسالة شفوية إليه، مضمونها أن ضباط اجتماع ذلك اليوم يخشون أن يكشف أمرهم، فلفقوا له تهمة سرقة عشرة مسدسات برونيك من مشجب قيادة الفرقة الثالثة، وأخذ

رواتب جنود احد الأفواج. وان ضابط الاستخبارات سينقل تلك المعلومات إلى مراجعه صباح يوم غد.

أدرك العميد ركن سالم أن المؤامرة ستؤدي إلى إعدامه لا محالة، خصوصاً انه لا يملك دليلاً عن خيانة أولائك الضباط، وهم هيئوا أدلة مسبقة تدينه بسهولة. وبينما كان في دوامة تفكيره وصلته الأوامر للتحرك وصد الهجوم الإيراني بالاشتراك مع قطعات أخرى، ودخل بالفعل مع قواته في اشتباك استمر سبع ساعات، تقهقر على أثرها العدو، وأثناء ذلك شاغل عناصر حمايته ووصل إلى سيارة ايفاً دون أن يلحظه أحد، قادها بضعة كيلومترات نزع خلالها ثيابه العسكرية التي كان يرتدي تحتها ثياباً مدنية. ترك الأيفا عند بناء طيني مهجور واستقل سيارة أجرة إلى مدينة العمارة. وهناك اشترى زياً عربياً بعباءة ويشماغ. واستقل سيارة أخرى أخذته إلى قضاء الميمونة ومن هناك ذهب إلى الناصرية وأتصل من أحد مطاعمها بزوجته أحلام. قال لها بصوت خافت انه واقع في مشكلة كبيرة، لكنه جسدياً بخير وسيذهب إلى جهة مقصودة، ويتصل بها من هناك. وطلب منها أن تتعامل هي ووالدته مع وصول خبر استشهاده بشكل طبيعي من بكاء وغيرها من الأشياء لكي لا تثيران الشكوك. وأمرها بنقل كل ما هو ثمين من المنزل إلى مكان آمن على سبيل الاحتياط. بعد إنهاء المكالمة تجول سالم في سوق الصفاة في الناصرية

ساعتين ثم اتجه إلى بغداد بالحافلة، ومن بغداد ذهب مباشرة إلى السليمانية.

كانت الخطة محكمة، تمثلت بقيام احد جنوده المخلصين بعد انتهاء الهجوم وإخلاء الجرحى وجثث الشهداء بالإبلاغ عن استشهاد العميد ركن سالم أبو درع بسقوط قذيفة فوقه مباشرة محته من الوجود. وبذلك سيرتاح الضباط الخونة لموته وسيضمن عدم ملاحقته بتهمة الهروب من الخدمة في زمن الحرب. وعقوبة الضابط في وقت الحرب أو السلام لجريمة مثل هذه هي الإعدام".

تسلقني الخوف بسرعة وبائية، وجدتني بعد طول سلام بمواجهة كتيبة إعدامات يدوزنون الفرضة والشعيرة لضمان دقة التصويب نحو جبهتي. الصوت الذي يشبه صوتي أمر بإطلاق النار، أغمضت عيني وهبطت برأسي بسرعة ليرتطم بالسجل. ثم سمعت موسيقا صور من المعركة. بدد صداها مواء متلاحق من أمانج طالباً مني رفع سدادة النافذة ليتبرز في الحديقة.

عاد أبي ليشطب جملاً بأكملها أو كلمات محددة ضمن الأسطر. كان واضحاً أنه يتراجع عن ذكر أسماء مواقع أو أشخاص. ربما لم يرد أن يتورط أحد بمشاكل مع الحكومة بسببه. واصلت القراءة:

" الاتهام الباطل ضد العميد ركن سالم كان قد وصل إلى قيادة الفيلق قبل خبر استشهاده، وتوجه عناصر من الاستخبارات

لتفتيش منزله دون أن يعثروا على شيء. وبالرغم من إبلاغ الجهات المختصة عائلته بأسفها لاستشهاده، لكنها فتحت تحقيقاً عسكرياً بسرقته المسدسات والرواتب، وصدر حكم سريع بإنزاله إلى رتبة عقيد. دون أن يفكروا لحظة واحدة أن التهمة كيدية. ولو أراد سالم اخذ شيء لأخذ من غنائم الحرب وليس من مشجب المعسكر.

سالم شعر بالارتياح للقرار ضده لأنه كان دليلاً على اقتناع وزارة الدفاع برواية استشهاده، وهذا ما دفعه للعودة متخفياً إلى منزله قبل صلاة فجر التاسع والعشرين من تموز دون أن يعرف بأمره سوى والدته وزوجته فقط واختبأ في مستقره الأخير داخل السرداب".

صدمتني الجملة الأخيرة مثل دبابة هائجة اقتحمت المكان وداستني بسرفتها قبل أن تبتلعها الجدران وتختفي. تلفت بحثاً عن طيفٍ لأبي يستعجل شرح الأمر لي، فالقراءة كانت أبطأ من سلحفاة ميتة في تلك اللحظات وبين الكلمة والكلمة وجدت بحراً من فراغ. قرأت وأنا ارتجف:

"مضت الآن 187 يوماً، وسالم لم يفعل شيئاً لكي يثبت براءته من التهمة الظالمة التي لفقت ضده وأساءت إلى شرفه العسكري. ولو ظل مئة سنة أخرى في السرداب لن يرد الاعتبار لنفسه ولعائلته. ولن تسمعه أي جهة. لذلك وجب عليه إحكام النهايات السائبة بنفسه. فلا قيمة لحياة مثل هذه. رجل مثل والدك شرفه

الموت في جبهات القتال وليس هارباً ومذلولاً داخل سرداب. فلا نامت عيون الجبناء_ الثاني من شباط 1986".

تنقلت عيناي في بياض الأسطر اللاحقة. قلبت الورقة المطوية على شكل مثلث، دققت في الصفحات البيض واحدةً بعد أخرى حتى وصلت نهاية السجل أفتش عن كلمة تنهي القصة المتشكلة أمامي بنهاية أخرى لأبي. أخذت السجل وصدري مختنق بالبكاء. صعدت الدرجات. وقفت أمام باب السرداب أنوي طرقه مستدعياً أمي، استرجعت هناك كلام العريف أمانج بشأن اتهام ضباط معسكر التدريب لوالدي بسرقة المسدسات ورواتب الجنود. وما كانت تردده أم يعقوب بخصوص بحث رجال الأمن عنه. تذكرت مشهد رفع خالي زياد تابوت أبي الفارغ والملفوف بالعلم العراقي بمساعدة شخص مستطرق مر صدفةً في الشارع وضعاه دون مراسيم تذكر فوق سيارة الكرونا وربطوه بحبل أسود. وتذكرت كذلك وجوه مداهمي منزلنا والغضب الذي كان في ملامحها. قفزت إلى ذهني مشاهد أمي وجدتي تقرآن الفاتحة أمام الدرجات، نظرت إلى الأسفل مستحضراً عويلهنّ على الفتحة التي أحدثتها المياه في الجدار. هبطّتُ مسرعاً نحو الحجرة الأولى. أفرغت صندوق عدد على الأرض، تناولت مطرقة وذهبت مسرعاً نحو الجدار. ضربته مرة واثنتين وثلاثاً وأنا اصرخ وأبكي مثل مجنون.

تهشمت مساحة دائرية من اللبخ وتناثرت أجزاءه الهشة على الأرض لينكشف وجه الجدار الطابوقي الأبيض. طرقته عند

الوسط تماماً فتكسرت طابوقةٌ وسقط نصفها في فراغ الجدار. سحبت نصفها المتبقي وفعلت ذلك بسهول مع طابوقات أخر فقد كانت طيعة تماماً أمام اندفاعي وغضبي. وجدت تراباً يغطي حوض أسفل الدرجات بارتفاع خمس طابوقات. جلبت الفانوس ومجرفة من الحجرة الأولى وأخذت أحفر رافضاً الإصغاء الى نصائح الصوت الذي يشبه صوتي. وعند مستوى ارتفاع الطابوقة الثانية رفع المعول عظمةً من رفات أبي.

أحسست بوخزة الم في صدري وبصعوبة في التنفس. سقطت المجرفة من يدي. جسدي تراجع إلى الخلف تلقائياً ليرتطم بجدار الحجرات. دار بي ممر السرداب وفقدت السيطرة على رأسي قبل أن يختفي المكان.

سمعتهم يقولون أرفعوه عن الأرض، اسحلوه. وأمسكت يدان بقوة بذراعي وسحبتاني لتحتك ركبتاي بالأرض. كنت أعمى ومشلولاً غير قادر على تحريك شيء مني. السمع كان حاستي الوحيدة الباقية على قيد الحياة. جاء من الخلف صوت أمي الفزع:

– إلى أين تأخذوه.

أغلق باب ما بقوة. أجلستني اليدان على مؤخرتي، وسمعت أصوات البساطيل وهي تضرب الأرض بقوة من حولي. ثم قال صوت جهوري: " تنكب سلاح"، "جنب سلاح"،" أسترح". ثم عاد ليقول" تنكب سلاح، صوب". أردت البكاء أو الصراخ فلم أجد فمي في عتمة الفراغ الذي كنت فيه. وفشلت في تقليص عضلات

جسمي وقبض ملامحي لاستقبال الرصاصات. حاولت تذكر ما يتوجب علي فعله أو قوله قبل الموت، فلم تكن هنالك سوى صور صامتة لوجوه ياسمين وأخواتي والأمنجين. قال الصوت مدوياً:

_ أطلق النار.

****

فتحت عيني واحدة بعد الأخرى. ونصف وجهي الأيمن على أرضية الممر. ورائحة التراب الندي تملأ أنفي. حركت أصابع رجلي ثم أصابع يدي فاستجاب لها أمانج بوثبةٍ على ظهري ووقف على كتفي الأيسر ثم لطع شحمة أذني. رفعت رأسي بصعوبة متذكراً تفاصيل ما حدث. نهضت بتثاقل وسرت نحو الدرجات، رفعت الفانوس ودفعته إلى داخل الكوة وتأملت خطاً عظمياً لاح من تحت التراب، جلست على ركبتي وأخذت أغرف بكلتا يدي تراباً والقيه بحركات متناوبة خارجاً. كانت قوة غريبة تدفعني إلى ما أقوم به دون تفكير. ظهر الحوض وعظمتا الفخذ. صعدت إلى أعلى وأزحت التراب عن جمجمته فوجدتها مائلة إلى جهة اليمين. تجويف فتحات الأنف المثلث والعينين الدائريتين كانت مملوءةً بالتراب. لم أشعر بشيء لحظتها، تبدد الحزن والخوف. فبدوت وأنا أستظهر ببرود هيكل والدي العظمي شخصاً آخر وليس أنا.

أردت الالتفات للقيام بشيء آخر لحظة أن لمع شيء معدني عكس ضوء الفانوس بين ضلعين في الجهة اليسرى, سحبته بهدوء بأصبعي السبابة والوسطى. فاتضح لي أنه قرص أبي التعريفي مربوطاً بسلسلة من كريات حديد خرزية. سحبتها بيدي الأخرى وحللتها برفق.

مسحت القرص بسروالي ودخلت به مع نصف جسمي عبر فتحة الجدار لقراءة ما كان محفوراً عليه مستعيناً بنور الفانوس. " اسم المقاتل: عميد ركن سالم جميل سامي. التسلسل: 5140928 ، صنف الدم A+ ".

الكرفان: جمع كريف. وصف يطلقه الايزيديون لمن يعدونهم أخوة لهم من غير الايزيديين.

ثورة داخل سرداب

المعارك التي خاضها أبي لم يكن أي منها لأجل الوطن. وإنما ليصبح بطلاً أسطورياً في عيون الناس وخالداً في ذاكرة الجدات. ربما توهم هو أن بإمكانه ذلك أو تم إيهامه بتعمد. دون

أن يستوعب أن أي انتصار حققه مع أولئك المساكين الذين كانوا يصدون الرصاص والصواريخ بصدورهم، كان يحسب للقائد الأوحد لا سواه. وإلا فكيف تخلى الوطن عن أبي بتلك السهولة. وكيف رضي هو بمصير الموت مختبئاً في السرداب.

لم يغمض لي جفن ليلتها، شيء ما في داخلي كان قد كسر ووجعه عصر قلبي. كنت منقسما إلى أثنين متضادين. أحدهما منح أبي عذر اختتام سيرته العسكرية سجيناً في السرداب مثلي رافضاً عدها خيانة للوطن لأنه اضطر إلى ذلك بسبب عصابة مجرمة أرادت النيل منه. قسمي الثاني أصر على أن أبي هرب من المشكلة ولم يواجها كما ينبغي لقائد عسكري وما حدث له استحقاق طبيعي، فشخص لا يقوى على الدفاع عن نفسه لن يكون بالضرورة قادراً على الدفاع عن وطن.

كنت أميل لرأي قسمي الثاني وتوصلت إلى أن الجبن وراثة عائلية مثل أنتفاخة الأنف أو السمنة أو قصر القامة أو الأمراض المزمنة. شيء لا يمكن التخلص منه أو إخفائه إلى الأبد. ومهما حاول المرء كتمان جبنه وتغطيته بأقنعة الشجاعة، لابد وان يظهر ذات يوم كاشفاً عن الحقيقية. وهذا ما حدث لنا أنا وأبي. هو هبط إلى السرداب من أعلى قمة شجاعة وصل إليها، وأنا جئته من أبعد نقطة جبن. وكان هذا هو القاسم المشترك الوحيد الذي جمعنا.

تساءلت إن كانت أمي ستدفنني عند موتي بذات الطريقة التي دفنت بها أبي وتنتظر حرباً جديدة لتعلن نبأ استشهادي فيها. هل كانت تزورني كل يوم جمعة أم تزور قبر زوجها الراقد على مقربة مني لسنوات دون أن أدري. كانت تردد باستمرار أنها جنبتني المصير الذي لاقاه. ولكنها في الحقيقة صنعت مني نسخةً أخرى مطابقة له.

هبطت أمي إلى السرداب على غير عادتها فجر يوم الأربعاء. من المؤكد أن جلبتي روعت البنات عصر اليوم الفائت واعتقدن بأنها روح أبي تستعد في السرداب لأحياء الذكرى الخامسة عشر لوفاته. سمعتها وأنا في فراشي تبسمل بصوت عال وتجرش بنعليها فتات اسمنت اللبخ المتناثر على أرضية الممر. كنت قد أهلت بالتراب على رفات أبي وغطيته جيداً بالطابوق. ولا شك أنها رأت هذا في تلك اللحظات. سكونها وصمتها أوحيا لي بأنها صعقت لمعرفتي بسرها الدفين. وبعد دقائق سمعت ضرب نعليها على الدرجات، وصوت قفل الباب والمفتاح يتقلب فيه ثلاث مرات.

عادت ظهيرة يوم الجمعة. كنت عند زاويتي و أمانج نائم في حضني. جلست قبالتي على الأرض مستندة بظهرها على الجدار أسفل النافذة الثانية. قالت بتردد أنها جلبت لي طبقاً حاراً من "المستوى "* مع مئونتي الأسبوعية، وقطعاً من حلوى اللوزينا.

لم أرد بشيء، كنت أفكر بإبعاد السجادة المائلة قليلاً عن النافذة للتأكد من مقدرة أمانج على القفز في الأماكن المرتفعة. وقست بيدي قطر بطنه وأدركت أنه يتوجب علي توسيع كسر النافذة مجدداً لكي لا يجرح نفسه أثناء الدخول والخروج. ولم أتذكر على وجه التحديد كم مرةً قضمت بها أطراف الزجاج المزخرف خلال فترة نمو أمانج مذ كان هريراً حتى صار هراً بشوارب تعمل له قطط الحي ألف حساب.

جفلنا أنا و أمانج من صوت أمي الباكي طالبةً مني النظر إليها. وكررت ما قالته من قبل عشرات المرات أنها نفذت وصية والدي بحذافيرها وأقسمت بعدد من الأيمان أنها أرادتني أن اخرج من السرداب أولاً قبل أن تروي لي التفاصيل الحقيقية لموت أبي والمكان الذي دفن فيه. أحسست بها وعلى الرغم من بكائها ونحيبها أنها تعاملني كما كنت ذلك الطفل الصغير الملتصق بذيل دشداشتها ويتبعها مثل ظلها في أروقة المنزل محتمياً بأمومتها. قلت لها وأنا أمسح فروة رأس أمانج بيدي:

– لا تتعبي نفسك، أبي ذكر لي الحقيقة بنفسه.

ساد الصمت لحظات، كلانا انتظر ما سيقوله الآخر.

– وجدت رسالة كتبها لي في سجل قبل موته، خبأه لأنه ربما كان يعرف بأنك وجدتي ستخفونه عني. كما فعلتم مع أشياء كثيرة.

تابعت وأنا انظر إلى سقف السرداب:

- كنت تخرجين صباح الأول من كانون الأول في كل عام مدعيةً تمثيل عائلةً الشهيد سالم أبو درع في احتفالية فرع نينوى للحزب بمناسبة يوم الشهيد وتعودين وعلى صدرك شارة نصب الشهيد. وفي يديك شهادة تقديرية ونقوداً تقولين بأنها مكرمة السيد الرئيس القائد.

- كان هذا من أجلكم أنت وأخواتك. ومن اجل أن تظل صورة أبيكم في أذهانكم كما كان دائما. شجاعاً وقوياً ومخلصاً لعراقه.

- لكنه مات في السرداب هارباً من مجموعة فاسدين ومن حرب تركها وهي تطحن أبناء عراقه.

- كانوا سيتخلصون منه بطريقة أو بأخرى. وما فعله كان عين الصواب.

- الهروب والاختباء ليسا صواباً بالنسبة لعميد ركن عفواً عقيد ركن في الجيش العراقي، لأنهم انزلوه رتبةً واحدة. قرأت الكثير من القصص عن ضباط في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وحروب أخرى عبر التاريخ، قتلوا أنفسهم بأيديهم عقاباً على الهزيمة أو الأسر، فكيف بالهروب والتخاذل.

نهضت أمي متأوهة. سارت خطوات حافيةً ثم رجعت لترتدي نعليها. قالت بشيء من الهدوء:

- عندما دخلت جدتك السرداب عصر الثاني من شباط في تلك السنة، وجدته ملقياً على ظهره في مكاني هذا ودائرة من دمائه تحيطه بعد أن كان قد أحدث بسكين صغير جرحاً في ذراعه.

ظلت عيناي معلقتين بالسقف وأنا استمع إليها:

– خشينا أنا وجدتك من إبقاء صفة المفقود عليه لكي لا تخسروا حقوقكم باعتباركم أبناء شهيد. فقمنا بدفنه سويةً تحت الدرجات وأعلمنا الفرقة الحزبية بأننا نصدق شهادة جندي ذكر فيها انه شاهد حادث استشهاد أبيك ووضعنا ملابسه العسكرية في تابوت وجرت له مراسم دفن عادية. وأقمنا له مجلس عزاء وفي يومه الثاني نقلنا كل شيء يخصه من المنزل ماعدا سيارة الماليبو تحسباً لأي ظرف. وبالفعل وقع ما خشينا منه وقام الجندي الشاهد بتغيير شهادته بعد أسبوعين وقال بان المرحوم سرق مسدسات وأموالاً من المعسكر، وهرب ملتحقاً بالعصاة في الجبال.

استسلمت أمي لنوبة من البكاء، انشغلت بها لنحو ربع ساعة. بينما كنت محنطاً غير آبه بما يجري. ثم واصلت:

– حققوا معي ومع جدتك وحكمت المحكمة العسكرية على والدك بالإعدام غيابياً ومصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة. فحجزوا على السيارة والعقارات المسجلة باسمه في الطابو وباعوها بعد ذلك في مزاد علني. وفرضوا علينا رقابة لحين انتهاء الحرب مع إيران في آب 1988، معتقدين بأنه على قيد الحياة ولنا تواصل معه.

تأملتني بضع ثوان، كانت تحاول تذكر شيء:

– تخلى عنا الجميع في تلك الفترة خوفاً من الاستخبارات والرفاق، حتى زوج أختك سندس طلقها خوفاً على نفسه من الملاحقة.

اقتربت مني. أرادت أن تضع يدها على رأسي فمنعتها. قلت دون أن انظر في وجهها:

– أعتبريني ميتاً ومدفوناً مع أبي. أنا كذلك منذ أن أدخلتني في هذا السجن.

****

استعدت نشاطي كفأر قراءة وارتفعت بمرور الأيام أعمدة الكتب المقروءة مجدداً في حجرتي. كنت خارج السرداب أغلب الأوقات أذهب في جولات يأخذني فيها المؤلفون إلى عوالمهم الخاصة. جسدي في الفراش أو عند زاويتي وروحي تحلق في أمكنة أخري.

فرضت عقابي الخاص على أمي. مارست معها دور الميت الذي لا يسمعها أو يكلمها. وبعد أشهر من محاولات يائسة قامت بها لكسر صمتي. استسلمت في النهاية لعقوبتها. وصارت تكتفي بإخباري عن مفردات غذائي الأسبوعية التي جلبتها، وتذهب دون أمل أن ارفع عيني عن الكتاب الذي أقرأه.

حتى أمانج تأثر بالتغيير الذي طرأ على شخصيتي وعدم اهتمامي به وتوقفي عن أطعامه. فلم يعد يصدر ذلك الصوت الجوفي المتواصل وهو يتقرب مني، وتوقف عن ملاحقتي في كل

شبر من أنحاء المكان. وأخذ يقضي أوقاتاً طويلة خارج السرداب، وذات يوم من شباط سنة 2001، انتصبت أذناه لصوت قططي مائع جاء من الحديقة، فركض خارجاً من حجرتي وهو يموء فرحاً. ولم أره بعدها أبداً.

كنت اشغل الراديو أحيانا لمجرد تمرين أذني على الأصوات والشعور بوجود عالم حي غير الذي أحييه من الكتب. الأخبار حافظت على سوداويتها وغرابتها في بعض الأحيان: " مليون ونصف المليون طفل عراقي توفوا خلال سنوات الحصار. فدائيو صدام قطعوا رؤوس بغايا في بغداد والموصل والبصرة. وزير الدفاع سلطان هاشم لا يستبعد نشوب حرب جديدة بين العراق وأمريكا، استمرار الغارات الجوية للطيران الأمريكي والبريطاني على مواقع الدفاعات العراقية الجوية. تطوع سبعة ملايين عراقي لتحرير القدس. أمريكا تخصص 12 مليون دولار للمعارضة العراقية. عودة العلاقات بين العراق وسوريا بعد عشرين سنة من المقاطعة. العراق يقدم 100 مليون يورو لمساعدة الفقراء في الولايات المتحدة الأمريكية. منشق عراقي يعلن عن امتلاك صدام قنبلتين نوويتين. مقتل محافظ أربيل فرانسوا حريري. العراق ينفي تورطه بتفجير برجي مركز التجارة العالمي".

أصبت بمرض نفسي لا أعرف ما أسمه. يختلف عن الجنون الذي قرأت عنه في الكتب. فلم أكن أتحدث مع نفسي وأضحك مع الجدران أو أتبول في ثيابي. بل تحولت إلى آلة بلا مشاعر

وتعطلت بعض حواسي. ليتساوى عندي الدفء بالبرد، وفقدت رغبتي في تتبع الزمن. طالت لحيتي وغطى شعر رأسي نصف وجهي وتحول السرداب إلى فوضى تداخلت فيها محتويات الحجرات الأربع، وازدحم الممر بالثياب والكتب والصحف والمجلات وفتات خبز رقاق ومعظم الطعام الذي تضعه أمي خلف باب السرداب كل يوم جمعة.

فقدت خيالي أيضاً. والصور المخزنة في عقلي ضاعت كلها بدموعها وابتساماتها. بذلت جهوداً مضنية من اجل القبض على صورة أدخل من خلالها مشهداً حلمياً يكسر القشرة السميكة التي أحاطتني. ويحدث تغييراً في تشابه ساعات ليلي ونهاري. فلم أستطع غير البقاء ضمن إطار الدائرة ذاتها. وما فعلته أنني تمكنت من توسيع الدائرة قليلاً باختراعي لعبة الخطوة 1000. وتتلخص بوقوفي مسنداً ظهري بجدار الأسمنت قرب زاويتي وكلما مددت خطوة أقف في وضع الاستعداد العسكري وأعد في سري من الواحد إلى أن أصل الرقم 1000. وأفعل نفس الشيء مع الخطوات التالية. وهكذا أقطع ممر السرداب جيئة وذهاباً ولا أعود إلى حجرتي إلا وأنا امشي متعثراً من التعب. ثم طورت اللعبة بإبدال القراءة في كتاب أحمله بدلاً من العد خلال ساعات الصباح. فأقرأ عشر صفحات بين الخطوة والأخرى. أمسك بالفانوس بيد للحصول على مزيد من الإضاءة والكتاب بيد أخرى.

مضت أكثر من سنتين ونصف السنة دون أن أتفوه بكلمة واحدة. كان خرساً تاماً انتقلت عدواه إلى الصوت الذي يشبه صوتي. فلم يقل شيئاً عندما تهشم زجاج نافذتي السرداب ومال جدار الخشب الفاصل بين الحجرتين الثانية والثالثة أثر قصف استهدف مضادات جوية كانت بداخل مدرسة ابتدائية على بعد شارع من بيتنا. وتجاهل نزيزاً طفيفاً سال مائه من قبر أبي وتوقف على بعد خطوات منه. وفعل الشيء ذاته عندما أردت إحكام النهايات السائبة الخاصة بي بفتح ثقب في رسخي بواسطة مسمار صدئ. عند الموضع الذي وجِد فيه أبي منتحراً.

****

يوم الأربعاء الخامس من حزيران 2002 وبينما كنت أقف حافي القدمين على الدرجة السادسة أقرأ والفانوس يتمايل بيدي آخر صفحة من كتاب تأملات في الإنسان لرجاء النقاش. داهمتني فكرة توثيق ماعشته في السرداب. كان إيعازاً نفذته مثل جهاز استجاب لضغطة زر. نبشت موجودات صناديق العتاد الخشبية. أخرجت سجل رسالة أبي. وثلاثة أقلام، أزرق وأحمر وأخضر. وذهبت عند زاويتي. فتحت السجل من المنتصف وبدأت بكتابة رسالتي من حيث انتهى أبي.

– المستوى: أكلة شتوية تؤكل ساخنة. تتألف من الشلغم والشوندر.

سقوط سرداب

يوم الاثنين 21 تشرين الأول 2002 أصدر صدام حسين عفواً عاماً أطلق بموجبه سراح السجناء والموقوفين جميعاً بمن فيهم المحكومون بالإعدام. وأوقف كل أنواع الملاحقات القضائية باستثناء المتعلقة منها بالتجسس لصالح أسرائيل. مكرمةٌ رئاسيةٌ كان ظاهرها تقديراً للموقف الشعبي في استفتاء الإبقاء عليه سبع سنوات جديدة رئيسا للبلاد بنسبة مئة في المئة. ولكن الحقيقة غير المعلنة أنها كانت خطوة أستباقية لمواجهة حرب جديدة غير مأمونة العواقب مع أمريكا وحليفتها بريطانيا.

فجأة أصبحت السجون خاليةً. ولم يبق في العراق سجينٌ غيري. أُطلِقت أعيرةٌ نارية في الشوارع ابتهاجا وامتناناً للقائد.

واحتفلت الإذاعات العراقية بأغان حماسية، فيما تظاهرات مناهضة لحرب محتملة كانت تجوب مدناً أوربية وقوات أمريكية وبريطانية تستكمل تحشداتها في الخليج. وطائرات تابعة لها تقصف بانتظام الدفاعات الجوية العراقية وتمطر آلاف المناشير يومياً فوق معسكرات الجيش تبشره بنمو عهد جديد بلا صدام.

أمي قامت صباح الثلاثاء بمناورة سردابية للتأكد من ردة فعلي إزاء قرار العفو. تصنعت تعثراً بقدورٍ وأوانٍ في الحجرة الأولى. ورفعت صوتها حامدةً الله وهي تمد رأسها من بين أعمدة الكتب لرصد وجهي أملا في العثور على لحظة صفاء تعيد بها مياهي إلى مجاري أمومتها. قالت متصنعةً فرحاً فات أوانه بأنني حر وآمن تماماً من أية ملاحقة عسكرية، وأنها تستطيع منذ الآن النوم مطمئنة على مستقبلي. ثم راحت تردد أغنية موصلية وهي تصفق:

– يلا أفرشولو بصدر الأيوانا، مات العدو واصفرت ألوانا, فرشنالو الـ ثائر وهلهلنالو، فرشنالو الـ ثائر وهلهلنالو، وبخبيش من أمو جانا .

كنت خارج مديات تأثير أمي. عالقاً في دهليز هرمان هسة الفكري في رواية ذئب البوادي. ظلت قرب باب الحجرة تنتظر حركة مني أو كلمة أختتم بها حصاري وهدوء الموتى الذي كنت عليه. تنفسها المضطرب وزقزقة جدار الخشب وهي تدفعه متكئةً

بثقل جسمها. كانتا آخر محاولتين يائستين قبل أن تنسحب بضجة بكاءٍ أنخفض صوته حجرةً بعد أخرى حتى غاب تماماً مع صفقة باب السرداب القوية.

****

في السابع من شهر آذار منحت أمريكا وبريطانيا العراق مهلة عشرة أيام لنزع أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها وهددت بنزعها بالقوة إذا لم يفعل. فسارعت الدول إلى إغلاق سفاراتها في بغداد وسحبت الأمم المتحدة موظفيها. فيما ارتفعت السواتر الترابية في مختلف المدن العراقية استعداداً لحرب شوارع محتملة. ويوم انتهاء المهلة المحددة عاد الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش ليمنح صدام 48 ساعة كمهلة لمغادرة الحكم والعراق. وبعد ساعة ونصف من انتهائها انطلق أربعون صاروخ كروز أمريكي من سفن وغواصات في البحر الأحمر والخليج. مستهدفةً المقرات الرئاسية في بغداد وأربع عشرة محافظة عراقية أخرى إيذاناً بحرب جديدة سكتت خلالها صفارات الإنذار.

لم أستطع إبقاء السرداب في حالة تعتيم. كان لابد من التخندق في موضعي الفراشي ومجاراة سرعة الأخبار وتلاحقها في الراديو. صدام أطلق أسم الحواسم على الحرب. الهجمات الجوية

والصاروخية عطلت الاتصالات الأرضية في البلاد. قبعة دخان غطى بها النظام بغداد بإحراق خنادق نفطية حفرها في الحدائق العامة والجزرات الوسطية بهدف حجب الرؤية عن الطائرات والأقمار الصناعية. أم قصر في البصرة ظلت صامدة أمام هجمات الجيش البريطاني، في حين وصلت قوات أمريكية إلى أطراف بغداد. وزير الأعلام محمد سعيد الصحاف أصبح ضيفاً دائما على جميع الإذاعات في الراديو. والمسؤول العراقي الوحيد الذي سمعت صوته خلال الحرب مصراً وباستمرار على تكبد قوات التحالف التي وصفها بالعلوج خسائر كارثية.

وفي الرابعة من عصر يوم الأربعاء التاسع من نيسان، كانت رافعة مدرعة أمريكية تجر تمثالاً كبيراً لصدام في ساحة الفردوس وسط العاصمة بغداد لتسقطه وسط جمع من المواطنين العراقيين الفرحين معلنةً بنحو رمزي سقوط النظام العراقي. في وقت كان صدام ذاته يحيي للمرة الأخيرة مواطنين آخرين كانوا يهتفون بحياته في منطقة الأعظمية شمالاً.

عند الرابعة وأربعة عشر دقيقة عصراً سمعت الصوت الحاد لاحتكاك إطار صورة صدام بالأرض. والارتطام القوي لباب السرداب بالحائط. هبطت أمي الدركات حافيةً وهي تبكي فرحةً ببشرى سقوط صدام. كنت واقفاً في خطوتي الخامسة بين نافذتي السرداب أعد إلى الألف ملصقاً الراديو بأذني اليمنى. أزحت

الشعر عن وجهي فرأيتها واقفةً أمامي وبيدها مفتاح السرداب. تقدمت نحوي خطوتين :

- حضرت لك الحمام. وغرفة نومك جاهزة.

رفعت قليلاً صوت مذيعة صوت القاهرة وهي تقرأ ختام النشرة الإخبارية. وواصلت العد:

- 567، 568، 569، 570، 571.

أحمر وجه أمي وأهتز صدرها العريض وهي تتلفت في الاتجاهين للتنفيس عن غضبها. رفعت المفتاح بوجهي وصاحت:

- انتظرت هذه اللحظة سنوات طويلة. كل يوم منها كان يعادل سنة وأنا أتعذب من أجلك، وضميري يحاسبني لأنني كنت سبباً لحبسك في السرداب. وجاء اليوم الذي سينتهي فيه عذابي وعذابك.

- 638، 639، 640، 641، 642.

سحبت الراديو من يدي بعصبية. رفعته مع المفتاح الى الأعلى ثم ألقتهما بعنف على الأرض. فأنقسم الراديو إلى نصفين وتدحرجت على أرض الممر بطارياته. واستقر المفتاح بين قدمي. هزتني مثل شجرة وقالت:

- أنت لست مجنوناً. أخرج للناس وإلا سينزلون هم إليك. ويروك بهذه الحالة.

كان شعري قد انهمر على وجهي مجدداً وحجب صورة أمي. سمعتها تقول وصوتها يبتعد:

- كنت تنتظر سقوط صدام والسرداب، فسقطت معهما.

*****

سارعت إلى غلق باب السرداب بعد مغادرة أمي. غرزت ربع المفتاح في الثقب. فدار متقلباً فيه ثلاث مرات، فأشعرني ذلك بالأمن والطمأنينة. ركضت صوب حطام الراديو. أطبقت نصفيه بعد أن أعدت ربط أسلاكه الداخلية ولقمته بالبطاريات. لكنه بقي صامتاً ولم يشتعل ضوءه الأحمر. أبدلت البطاريات وتأكدت من وجود كل شيء محله في جوف الجهاز. قربت هيكله من أذني. غيرت موضعي لمرات عدة، دخلت حجرتي والحمام، جلست فوق الدرجات وتحت النافذة الثانية فالأولى. جلست في زاويتي وأبقيته في حجري ساعتين أهزه بين حين وآخر. أدير عتلته وأتتبع مؤشره من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وبالعكس. لكنني لم التقط صوتاً يثبت أن في الجهاز روحاً.

عند منتصف الليل. أوقفت جميع محاولات إعادة إحياء الراديو مستسلماً للصمت المطبق الذي غرق فيه السرداب. رفعت أربع طابوقات من فوق قبر أبي وحفرت في ترابه قبراً مستطيلاً دفنت

فيه الراديو. وسقفته بالطابوق. ثم أخذت الفانوس وسجلنا أنا وأبي، وجلست عند زاويتي لأدون ما أستجد من أحداث.

****

فززتُ من صوت جدتي وهي تدعوني للاستيقاظ. كانت واقفةً على مقربة مني باستقامة امرأة في منتصف العمر وبملامح غير متجعدة. تحمل بيدها قميصاً مدرسياً أبيض اللون. وبختني قائلةً:

_ لن تكبر أبداً. وستظل أبن أحلام المدلل الذي لا ينفع لشيء.

ثم تغير صوتها وصار مثل صوت أبي. أمرني بالنهوض والذهاب معه لتسليم نفسي في المعسكر. وأبدى استياءه ونفاذ صبره بسبب عدم انضباطي. ألبستني جدتي القميص. وأخذتني من يدي واجتازت بي الباب نحو ممر بسقف وجدران زرقاء اللون انتهى بأبواب عديدة متجاورة توقفنا أمامها. ثم قال أبي بصوت فيه حنان:

– عليك أن تختار المنفذ الذي ستسلكه بنفسك.

مشيت إلى الأمام بخطوات صغيرة داخلاً في مركز دائرة محيطها أبوابٌ يتغير لون الواحدة منها ما أن ارفع عنها نظري. ثم تحركت دائرة الأبواب عكس اتجاه عقارب الساعة. وازدادت سرعتها شيئاً فشيئاً حتى لم أعد أر منها غير خط من الألوان

يدور بسرعة ضوئية حولي. ثم صرت التف حول نفسي. أدور وأدور داخل الحلقة تدفعني ريح قوية باردة. رفعتني بعدها إلى الأعلى مع دائرة الألوان. وفي فضاءٍ شاسع من العتمة توقفت مع المكان عن الدوران. تجمدت عند لحظة سكون وكأني جزء من صورة فوتغرافية. انتبهت إلى أنني لا أتنفس وعداد ساعة الكترونية عملاقة يشير في البعيد إلى الثانية 59. شهقت الهواء بقوة أرتد معها جسدي إلى الوراء فخر ساقطاً من الأعلى وأنا أصرخ محركاً أطرافي بمنتهى الفزع. ومع ارتطامي الموجع بالأرض استيقظت فوجدت نفسي مستلقياً على ظهري قريباً من زاويتي. وضوء صباح العاشر من نيسان يزحف إلى داخل السرداب.

***

سقط السرداب. سقط صدام. وسقطت أنا أيضا معهما كما قالت أمي. أقررت بذلك وأنا جاثٍ عند قبر أبي أفكر بتفاصيل رسالته لي. هو لم يسقط مثلنا. ربما تخاذل عن نصرة نفسه واستسلم لخوف كان قد أورث الكثير منه لي. لكنه لم يسقط. تمكن في آخر لحظةٍ من مسك زمام الأمور ورد الاعتبار لذاته بعقاب نفذه بيديه غسلاً لعاره. شعرت برغبة تسيرني للامساك باللحظة الأخيرة الخاصة بي. وكان علي قبلها التخلص من وقاحة

مكوثي بين جدران السرداب التي بدأت تضيق مثل تابوت. وان انقل سجل رسالتينا أنا وأبي للعالم.

مثل مطارق تدق، تقلب المفتاح ثلاثاً في قفل الباب. أدرت المقبض الكروي. فانفرج الباب بصرير متواصل. وقفت داخل إطار الباب والممر ممتد إمامي وينتهي بباب خشبي آخر صغير. فيما كانت صورة صدام ملتصقة بالحائط على الوضعية التي تركتها أمي عصر الأمس. حاولت رفع رجلي لمد خطوة نحو الأمام، غير أن جاذبية السرداب سحبت جسدي وحاولت قذفه إلى الداخل. فقاومتها بصلابةٍ لا أدري من أين أتيت بقوتها. ومددت يدي نحو الصورة تحسست ظهرها الخشبي الأملس. سرت معها متحرراً من الجاذبية وأعدتها بهدوء ملصقاً إياها بباب السرداب فغطته بالكامل. تراجعت خطوات عدة متأملاً وجه صدام وشعره الأسود الفاحم. ورتبة المهيب ركن المتوجة لكتفيه وصدره الموشح بالأوسمة والنياشين. مشيت خطوات أخرى إلى الوراء وكلما ابتعدت عنه صغر حجمه وكبر شعوري بالاستغراب والدهشة من أن تكون صورة الشخص الذي هربت منه كل تلك السنوات هي التي كانت توفر لي الحماية وربما أنقذتني من الموت.

سرت بخطوات هادئة في الممر وكأنني امشي داخل حلم. وعند باب مدخله المفتوح التقط انفي روائح المنزل القديمة فاستيقظ ثائر الصغير بداخلي، تحرر منفصلاً عني. سبقني راكضاً

وانعطف نحو اليمين حيث مكتب أبي وغرفة جدتي والباب المؤدي إلى صالة الجلوس.

توقفت وسط الصالة متأملاً عقارب الساعة الجدارية القديمة ذات الرقاص. كانت تشير الى 11.25. رحت اجري عمليات حسابية في رأسي فوجدت أنني مكثت في السرداب أثني عشر سنة وشهرين، وثمانية وعشرين يوماً، وأثنين وعشرين ساعة، وسبع دقائق.

سمعت صرخةً ذهول تبعتها صرخات استغاثة متلاحقة مصدرها رؤوس أنثوية كانت تظهر وتختفي عبر بابي غرفتي النوم المتقابلتين في الجهة الغربية. ظهرت أمي من ناحية المطبخ وبيدها قدر صغير سقط متدحرجا على الأرض ما أن تأكدت من أن الوحش الحافي ذو الشعر الأشعث الطويل هو أنا. رفعت ثوبها قليلاً ومضت مسرعةً لتقف خلفي فاتحةً ذراعيها لمنعي من الرجوع الى السرداب. ثم نادت أخواتي وإبنتي سندس صارخةً بأسمائهنّ فخرجن تباعاً في طابور وهنّ ينظرن صوبي بفزع.

قالت أمي وهي تتحرك مثل حراس المرمى:

– ثائر رجع.

كان في وجوه النساء المرتعبات أمامي شيئاً من ملامح أخواتي القديمة. لم أميز منهن سوى سندس بأنفها المنتفخ الذي ورثته بإتقان عن أمي.

وضعت السجل على كرسي قريب وفوقه مفتاح السرداب. مشيت دون أن أقول شيئاً نحو المطبخ مقاوماً أذرع ذكريات شدتني إلى أرجاء البيت بغرفه وستائره ومقاعده وجدرانه وزواياه. اجتزت عتبة المطبخ نحو الباحة الخارجية وهنالك هاجمتني عطور النرجس وقداح البرتقال والليمون من الحديقة التي بدت أكثر شباباً واخضرارا من الماضي.

ساعدني الغطاء ألغيمي في السماء. على التكيف سريعاً مع الضوء النهاري غير المتناهي الذي دخلته بمجرد أن خطوت على الرصيف الموازي لمنزلنا. كان الحي ساكناً لا روح فيه كما درج عليه سابقاً في مثل ذلك الوقت من النهار. لكنني عندما دلفت نحو الشارع الرئيسي بين منطقتي الضباط والمالية السكنيتين وجدت العشرات من الناس يركضون في الاتجاهين، ومركبات تمرق كالريح زاعقةً بمنبهاتها. وأعمدة دخان ترتفع من مختلف الأنحاء كأن حرب صواريخ صامتة وقعت في المدينة للتو.

شاهدت ألسنة اللهب خارجةً من نوافذ دائرتي الأمن والزراعة المتجاورتين. وحشد من المتحمسين ينتظرون انطفائها للدخول في المبنيين. وعلى بعد مئة متر تقريباً كانت آلاف من صفحات الكتب الممزقة تتلوى على الشارع والرصيف الموازيين للمكتبة المركزية العامة، وهبات الريح تكسر المصفر منها وتمشط بفتاتها أرجاء المكان. وعند مبنى فرع نينوى لحزب البعث انهمك شخص معلق على سلم حاملاً علبة طلاء بشطب أبيات شعر كانت

مكتوبة تحت صورة عملاقة لصدام حسين ولم يبق منها سوى صدر البيت الأول " هذا الذي أيقظ التاريخ من خدرٍ ".

رذاذ المطر أنعش ذاكرتي وأنا أدخل جسر الحرية متذكراً مواكب مهرجانات الربيع التي لم تفوت طفولتي أيا منها. شاهدت من هناك سرب نوارس يحلق في البعيد ضمن ما يشبه حلقةً فوق الجسر العتيق * وقوارب تحته تجاهد ضد التيار للوصول إلى ما تبتغيه المجاديف. بينما كانت عشرات من الآليات الخدمية التابعة لبلدية الموصل تمر بجواري على شارع الجسر قادمة من جهة دائرة البلدية يقودها شبان يلفون رؤوسهم بعصابات صفر. وخلفها شاحنات طويلة تحمل مدافع ودبابات واليات عسكرية يقودها مراهقون لفت رؤوسهم عصابات سود. وعند بوابة متحف التاريخ في مدخل الجسر كان عدد من الملثمين ينقلون إلى شاحنات صغيرة صناديق مختلفة الأحجام، انفلتت من بعضها رؤوس وأجنحة تماثيل حجرية. وعلى الجهة اليسرى كان شبان يضرمون النار في مبنى مديرية الوسائل التعليمية. ومئات آخرون يتدفقون خارجين من مجمع محاكم نينوى ومديرية الشرطة، حاملين قطع أثاث وأجهزة كهربائية وأضابير ومسدسات وبنادق. وعلى اليمين كانت طوابير من الناس تخرج من فندق آشور حاملين أسرة ومفروشات وتلفزيونات ومغاسل يد ولوحات فنية.

تابعت سيري ماضياً عبر شارع الجمهورية غير آبه بالعيون التي كانت تتفحصني. وقبل نهاية الشارع سمعت جرس دار سينما

سمير أميس يرن منبها إلى اقتراب موعد العرض. وصورة كبيرة تغطي واجهتها بالكامل لشقراء عارية كتب تحتها بخط أحمر كبير عنوان الفلم" توبة امرأة"، وملاحظة صغيرة بالأسود" خمسة أفلام في آن واحد". في الجهة المقابلة كان العشرات من المسلحين بالسكاكين والعصي يتصارعون للحصول على أكياس من الأموال يخرج بها آخرون من بوابة المصرف المركزي. وفي تلك الأثناء شاهدت شخصاً ظهر في سطح المبنى ورمى من هناك رزماً من الأوراق النقدية فئة 25 الف دينار تحمل صورة صدام، فأمطرت على الشارع بأسره واحتشد المئات من الكبار والصغار لخطفها. فيما كان عمود دخان ينمو خارجاً من الجهة الخلفية لمبنى محافظة نينوى. انتقلت عدواه إلى مباني التأمين ومديرية الأحصاء وبلديات نينوى ودائرة الكهرباء.

لكزني أحدهم بقوة في كتفي، التفت بشيء من الخوف. فوجدت شخصاً حافي القدمين بثياب رثة ولحية مسبلة وشعر رأسه مسدل وتفوح منه رائحة المجاري. مد لي رزمتين من النقود وقال بلهجة آمرة وهو يشير إلى كيسين ممتلئين بالأموال:

- أحملها على ظهرك، وعندما نصل البيت أعطيك ثلاث رزم.

هززت رأسي ممتنعاً. ومضيت مسرعاً نحو شارع الدواسة وأنا أسمع صوته خلفي يقول:

- سوف أعطيك خمس رزم.

***

صادفت كثيرين يشبهونني مظهرياً في الشوارع التي مررت بها ذلك اليوم. وكأنهم خرجوا للتو من سجون سرية كالذي كنت فيه. بعضهم كان يحمل أشياءً نهبها من أماكن عامة وآخرون يفتشون عن أشخاص لتصفية حسابات قديمة معهم. وجميعهم غير مبالين بمركبات الهمر العسكرية الأمريكية وهي تجوب بحذر المحتلين مستكشفة طرقات المدينة. وفوقها طائرات مروحية تتمايل في السماء مثل رؤوس الأفاعي.

على جسر المدينة الرابع، مرت سيارات في موكب عزاء صاخب العويل تتقدمها شاحنة تحمل تابوتاً ملفوفاً بعلم العراق يجلس حوله رجال أنهكهم البكاء. وفي الاتجاه الآخر من شارع الجسر مرت سيارات في موكب عرس، خرج من نوافذها الراقصون وهم يلوحون لبعضهم بالمناديل. في حين غطت سيارات العروسين في المقدمة بالونات سود وبيض وحمر وخضر.

***

قبل مغيب الشمس بقليل، كنت أشق طريقي في صالة المنزل متخطياً ذهول أمي وأخواتي اللواتي بدون متجمدات عند وقفتهن الأولى. أحسست بهن يتبعنني وأنا أنعطف داخلاً في

الممر المؤدي إلى السرداب. وقفت بمواجهة صدام. تلاقت أعيننا. تساءلت في سري إن كانت الرتب التي يحملها تستحق كل الخراب الذي رأيته في الخارج. وإن كان هو يستحق أن تضيع بسببه أكثر من أثني عشر سنة من عمري. سحبت الصورة نحوي كمن يفتح باباً، ثم دفعتها إلى أن التصقت واجهتها تماماً بالحائط. وسلمت جسدي لجاذبية السرداب التي سحبتني إليه باشتياق، فهبطت الدركة الأولى، والثانية، توقفت في الثالثة والتفت إلى أمي المتسمرة خلفي مع أخواتي. أزحت الشعر عن وجهي قليلاً وقلت لها بصوت فيه غلظة:

– أغلقيه ورائي.

انتهى